الإنسان الطّبيعيّ والإنسان الثّلاثيّ الأبعاد
مقاربة فكريّة تحليليّة بَيْنَ المفهومَيْن

محمود الذّوادي*

استهلال

تطرح هذه الدّراسة للنّقاش والتّحليل والمقارنة مفهومَيْن رئيسيَّيْن، هما: الإنسان الطّبيعيّ والإنسان الثّلاثيّ الأبعاد. فمفهوم الإنسان الطّبيعيّ هو مفهوم غربيّ يحتضنه كثير من الفلاسفة والمفكّرين والمختصّين الغربيّين في العلوم الاجتماعيّة والإنسانيّة المعاصرة. في هذه المقالة، سوف نبرز تحليل المفكّر المصريّ الرّاحل عبد الوهاب المسيري لهذا المفهوم. وأمّا مفهوم الإنسان الثّلاثي الأبعاد، فهو مفهوم لم يَرَ النور إلّا في مطلع هذا القرن؛ إذ نصف ظروف ميلاده والأُسس الفكريّة والمعرفيّة/الإبستيمولوجيّة لمشروعيّته كمفهوم قادر على تجاوز مفهوم الإنسان الطّبيعيّ، كما عبَّر الأستاذ المسيريّ. فالربط بين الواحد والآخر أمر لا يتبادر إلى الذّهن لأوّل أو لآخر وهلة، ولذلك يمكن أن تُشكِّل هذه الدّراسة فتحًا كبيرًا على المستوى المعرفيّ، وسوف نُفصّل القول في حيثيّات الأبعاد الكثيرة للمقولة الفكريّة الأصيلة لمفهوم البُعد الثّالث للإنسان وخفاياها، بكونها مفهومًا جديدًا في العلوم الاجتماعيّة والإنسانيّة.

* عالم اجتماع - تونس.

معاني المفاهيم في المعرفة المعاصرة

قبل التّعرُّف إلى مقاربة المفهومَيْن المطروحَيْن في هذه الدّراسة، ينبغي التّوقُّف عند المعاني والدّلالات المتعدِّدة التي تقترن بكلمة مفهوم (concept) في العصر الحديث؛ إذ يرى البعض أنَّ هذا الأخير هو عبارة عن «فكرة مجرَّدة» أو مفهوم عامّ، مثل مفهوم فكرة التّطور[1]. وثمّة من يرى المفهوم أداة فكريّة تسمح بإدراك العلاقات الموجودة بين بعض الظّواهر. فمثلًا، إنَّ القرد الذي تعلَّم إطفاء النّار في المنزل بواسطة ماء الحنفيّة ولكنّه لم يستعمل ماء البحيرة للقيام بالشّيء نفسه، فإنَّه يُنظَر إليه على أنَّه لم يستوعب مفهوم الماء بصفة عامَّة وعلاقته بإطفاء النّار[2]. ويذهب البعض الآخر إلى عدّ المفاهيم نوعًا من المادَّة الذّهنيّة التي تربط تجاربنا الماضية بتفاعلاتنا الحاضرة مع العالم؛ إذ أنَّ المفاهيم نفسها مرتبطة ببنيات معارفنا الرّحبة[3].

ونختم هذه التّعريفات لمصطلح المفهوم بما جاء في موسوعة علم الاجتماع حول هذا الموضوع؛ إذ تقول هذه الموسوعة بأنَّ المفهوم يشير إمَّا إلى علاقات الأشياء أو إلى وصف خاصيّاتها. إنَّ المفاهيم ليست أقوالًا جازمة، ومن ثَمَّ فهي لا تتَّصف لا بالصّواب ولا بالبطلان. فمن جهة، تُعطي المفاهيمُ بكلّ بساطة مجموعة مِنَ المفردات اللّغويّة تحتاجها نظريّة ما، كما تحدّد المفاهيمُ، من جهة ثانية، موضوع البحث نفسه. وعندما تترابط المفاهيم في إطار ما يكون ذلك إشارة إلى بداية ميلاد نظريّة[4]، ولعلَّ هذا التّعريف السّوسيولوجيّ الأخير للمفهوم هو الذي ستتجلَّى معالمه أكثر في متن هذا البحث.

1- Judy Pearsall & Bill Trumble, Oxford English Reference Dictionary, Oxford University Press, Oxford, 1995, p. 298 - 299.

2- Norbert Sillamy, Dictionnaire de Psychologie, Editions Larousse, Paris, 1998, p. 63.

3- Gregory Murphy, The Big Book of Concepts, The MIT Press, Cambridge, 2004, p. 1.

4- Encyclopedia of Sociology, by: Dushkin, 2nd edition, Guilford, Conn 1974, p. 55.

جذور مفهوم الإنسان الطّبيعيّ

توصَّل المفكِّر عبد الوهاب المسيريّ إلى مفهوم الإنسان الطّبيعيّ في بحثه في الفكر الغربيّ المعاصِر. فالطّبيعة في تصوُّر الفكر الغربيّ المادِّيّ عبارة عن نظام يتحرَّك بلا هدف أو غاية[1]؛ إذ يرى المسيريّ أنَّ صفات الطّبيعة هي ذاتها صفات المادَّة بالمعنى الفلسفيّ. وانطلاقًا من هذه الرّؤية، يعتقد المسيريّ بأنَّ الإنسان الطّبيعيّ هو في واقع الأمر الإنسان الطّبيعيّ المادِّيّ الذي يتَّسم بالمعالِم التّالية: هو إنسان بلا حدود، إنّه «سوبرمان» حقيقيٌّ يعيش في الزّمان الطّبيعيّ الحرّ، وليس في الزمان التّاريخيّ الإنسانيّ الذي تتحكّم فيه القِيَم والأعراف[2].

استنادًا إلى ذلك، يكون مفهوم الإنسان المادِّيّ محوريًّا في العلوم الإنسانيّة الغربيّة، وهو يتَّصف ببعض السّمات:

- إنَّه إنسان بلا حدود مثل الطّبيعة/المادّة؛ فهو مكتفٍ بذاته على المستويات كافّة، فلا توجد حدود وقيود عليه: اجتماعيّة أو تاريخيّة أو أخلاقيّة أو جماليّة، فهو إنسان خارق حقيقيّ (سوبرمان) يعيش في الزّمان الطّبيعيّ الحرّ وليس في الزّمان التّاريخيّ الإنسانيّ الذي تتحكّم فيه القِيَم والأعراف الثّقافيّة. لا يوجد ما يفصله عن الطّبيعة أو عن قوانينها الكامنة في المادّة.
- إنّه جزء عضويّ مِنَ الطّبيعة لا يتجزَّأ عنها، لا يمكنه تجاوزها، فحدودها هي حدوده، وفضاؤها هو فضاؤه الأمر الذي يؤدِّي إلى اختفاء كامل للسِّمات التي تُميّز الإنسان عن الطّبيعة وعن غيره ممّا يوجد في الطّبيعة نفسها.

يدلّ ذلك أنَّ الإنسان الطّبيعيّ/المادِّيّ خاضع بالكامل لقوانين الطّبيعة الكامنة في المادَّة تُحرِّكه أينما وكيفما شاءت وهو عاجز عن الفكاك من حتميّاتها الصّارمة. فجوهر الإنسان الطّبيعيّ جوهر مادِّيّ؛ أي أنَّ الإنسان لا يختلف بشكل جوهريّ عن الكائنات الطّبيعيّة الأخرى إلّا ربَّما في الدّرجة.

بعبارة أخرى، هو في نهاية التّحليل الأخير وأفكاره وتاريخه وأشواقه وأحزانه مجرَّد جزء من بناء فوقيّ وهميّ متمثّل في البناء المادِّيّ التّحتيّ الحقيقيّ، ألا وهو الطّبيعة/المادّة وقوانينها. فالإنسان الطّبيعيّ مع كونه جزءًا من نظام الطّبيعة هو

1- عبد الوهّاب المسيري، دراسات معرفيّة في الحداثة الغربيّة، ط1، مكتبة الشّروق الدّوليّة، القاهرة، 2006م، ص 17.

2- المرجع نفسه، ص 18.

نظام واحد لا يعرف الثّنائيّات والتّعدديّة؛ أي أنّه أحاديّ البُعد؛ نظرًا إلى أنَّ الطّبيعة يمكن أن توجَد من دون الإنسان، فيجوز القول إنَّه لا يُشكّل مركزًا للكَوْن، وإنَّما هو جزء عرضيّ من الطّبيعة ينبغي عليه أن يذعن لقوانينها وأن لا يحاول تجاوزها.

فهذا الإنسان الطّبيعيّ/المادّيّ مثل كلّ الكائنات الطّبيعيّة لا يعرف القلق أو التّفكير في المجهول، ولا يُفكّر في مصيره ومصير الكَوْن، ولا تُعكّر صفوه أيُّ أسئلة معرفيّة نهائيّة وكلّيّة كبرى. فأسئلته إذًا كلّها أسئلة عمليّة مادّيّة محصورة في البيئة وفي الاحتياجات المادّيّة المباشرة.

وهكذا، فتفسير قِيَم هذا الإنسان الطّبيعيّ/المادّيّ ودوافعه ونشاطاته على أُسس طبيعيّة/مادّيّة؛ أي أنّ ما يُحرّكه هي أخلاقيّات طبيعيّة/مادّيّة تعتمد على المنفعة والمصلحة والرّغبة في البقاء. وترى الفلسفات والعلوم الإنسانيّة والاجتماعيّة الغربيّة أسبقيّة الطّبيعة/المادّة على الإنسان؛ لذلك تلغي ثنائيّة الإنسان/الطّبيعة فتسُود الواحديّة المادّيّة. فعالم الإنسان الطّبيعيّ إذًا عالم واحديّ برّانيّ أملس يُوجّه نظرنا إلى الجوانب الخارجيّة للأشياء.

الإنسان كما يراه المَسيريّ

في مقابل الإنسان الطّبيعيّ/المادّيّ يتحدَّث المسيريّ عن نوع آخر من الإنسان يُسمّيه الإنسان الذي هو غير الإنسان الطّبيعيّ/المادّيّ؛ وهو يحوي في طيّاته عناصر ربّانيّة تتجاوز قوانين الحركة التي تسري على الإنسان والحيوانات والنّظام الطّبيعيّ/المادّيّ. وتُمثّل تلك العناصر السّمة الإنسانيّة لإنسانيّته وتفصيله عن بقيّة الكائنات وتَمَيُّزه كإنسان.

يُميّز المسيريّ بين هذَين النّوعَيْن من الإنسان وفاق الآتي: الإنسان الطّبيعيّ لا يحمل جوهرًا إنسانيًّا؛ أي أنَّه ذو نزعة جينيّة. وأمَّا الإنسان، فهو يحمل نزعة ربّانيّة أو إنسانيّة، فهو لا يذعن دائمًا لحدود المادَّة بالرّغم من وجوده داخلها، وهو يعيش في عالم الثّنائيّات فيتفاعل مع الخالق ومع الطّبيعة. إنَّه كائن يحمل في داخله القبس الإلهيّ.

نرى ممَّا سبق أنَّ المسيريّ قد أطنَبَ في الحديث عن مواصفات الإنسان الطّبيعيّ/المادّيّ واختصر تحليله حول الإنسان الرّبّانيّ، بحيث لا يكاد يُعطي أدلَّة ملموسة تُثبت الجانب غير المادّيّ في هُويّة الإنسان، بل تسرَّع كثيرًا في الوصول والاعتقاد

أنَّ الإنسان كائن ربَّانِيّ يحمل قبسًا إلهيًّا يُمكّنه من تجاوز عالم الطّبيعة/المادّة وقوانينها ومعالم تأثيراتها الحتميّة على البشر وغيرهم. فيكتفي بتعريف الإنسان الرّبَّانِيّ بالقول: «والإنسان الرّبّانِيّ أو الإنسان ربّانِيّ؛ لأنَّه يحوي في داخله القبس الإلهيّ، فهو مستخلَف مِنَ الإله الذي خَلَقَه على صورته»[1].

كان من الممكن أن يدعم الأستاذ المسيريّ مقولته الرّبّانِيّة في كتابه بشهادات مِنَ الأديان والفلاسفة وعلماء النّفس، ولكنّه لم يفعل ذلك في بعض صفحات كتابه، بالرّغم من معرفته الواسعة في تلك الفروع المعرفيّة في العلوم الإنسانيّة.

في مقابل ذلك، رُبَّما يُمثّل مفهوم البُعد الثّالث للإنسان، بتفاصيله الكثيرة حول الجوانب الخفيَّة في طبيعة الإنسان، محاولة فكريّة لسدّ الفراغ الذي تركه المسيريّ في حديثه الوصفيّ المختصَر فقط عن الإنسان الرّبّانِيّ الذي يتجاوز صرامة القوانين المادِّيّة للطّبيعة، كما ذكرنا.

مفهوم البُعد الثّالث للإنسان

بعد العودة في أواخر الثّمانينيّات (1988م) إلى أرض الوطن تونس، عقب الدّراسة والتّدريس في أمريكا الشّمالية وغيرها من البلدان في آسيا وأفريقيا، بدأتْ مسيرتنا البحثيّة الفكريّة الجدِّيّة في محاولة فَهم طبيعة الإنسان وحركيّة المجتمعات البشريّة من منظور العلوم الاجتماعيّة التي نتخصَّص فيها. فتبنَّيْنَا في خطّة تفكيرنا في هذا الموضوع الخطوات الآتية:

1 ـ طَرحَ علينا هاجسُ فضولنا المعرفيّ بعض الأسئلة البحثيّة والفكريّة حول إمكانيّة إرساء إطار فكريّ (Paradigm) منبثق من تخصّصنا في علمَي الاجتماع والنّفس؛ لفهم سلوكات النّاس وحركيّة المجتمعات والحضارات البشريّة وتفسيرها. فقلنا بكثير من الثّقة ردًّا على ذلك الطّرح: هذا الأمر ليس بالمستحيل.

2 ـ ثُمَّ، ألقينا السّؤال المنهجيَّ التّالي: أين ينبغي علينا الشّروع في سَبْرِ ألغاز هذا الموضوع؟ فكان الرّدّ على ذلك الاستفسار في العبارات الآتية: علينا البدء أوّلًا في تحديد المواصفات الخاصّة التي يتميَّز بها الجنس البشريّ عن غيره من الأجناس الأخرى؛ لأنَّنا اعتقدنا ورأينا أنَّ العثور على تلك المواصفات يضع مسيرة بحثنا في المربَّع الأوّل الصّحيح، استنادًا إلى أنَّ تلك المواصفات المُميَّزة للبشر

1- عبد الوهّاب المسيري، دراسات معرفيّة في الحداثة الغربيّة، ص 22.

تُرشّحها بقوّة لكي تكون عوامل حاسمة لصيقة ومباشرة للتّمكين مِن فَهم سلوكات الأفراد وحركيّة الجماعات والمجتمعات والحضارات الإنسانيّة وتفسيرها.

3 ـ وجدنا أنَّ ما نُسمّيه البُعد الثّالث للإنسان (اللّغة والمعرفة/ العلم والفكر والدّيانات والقوانين والقِيَم والأعراف الثّقافيّة) هو تلك المواصفات التي يتميَّز بها الإنسان عن بقيّة الكائنات. فجاءت تسميتنا لمفهوم البُعد الثّالث للإنسان نتيجة لاعتقادنا أنَّ مواصفاتنا الجديدة لطبيعة الإنسان تتكوَّن من ثلاثة معالم، هي: الجسد والرّوح (مصدر بثّ الحياة في الجسد)، والبُعد الثّالث للإنسان أو منظومة الرّموز الثّقافيّة. وهي مواصفات تختلف عن تلك السّائدة منذ القِدَم والمتمثّلة في أنَّ ثنائيّة طبيعة الإنسان تتكوَّن مِن جسد وروح.

يُعرَّفُ البُعد الثّالث بأنَّه ذلك البُعد الإضافيّ الذي يُميِّز سقوط شيء صلب عن سقوط نظيره (المسطّح) الفاقد لذلك البُعد. وهكذا، فالبُعد الثّالث للأشياء يرفع من اكتمال إدراك واقعها وحقيقتها ويجعلها أكثر تجسّدًا ومعنًى للواقع الكامل للأشياء.

ومِنَ المناسب القول، من جهة أخرى، إنَّ مصطلح البُعد الثّالث للإنسان هو مصطلح جديد. وكما ذكرنا للتّوّ، فالبُعد الثّنائيّ لهُويّة الإنسان هو الشّائع الاستعمال في القديم والحديث والمتمثّل في أنَّ الإنسان جسد وروح. وقد ذهب الفيلسوف وعالِم الاجتماع «هربرت مركوز» (Herbert Marcuse) إلى وصف إنسان المجتمعات الغربيّة في السّتّينيّات مِنَ القرن العشرين بأنَّه إنسان ذو بُعدٍ واحد (One-Dimensional Man)؛ وهو الإفراط في الاستهلاك[1].

4 ـ بناءً على ما ذكرنا، تبيَّن لنا أنَّ التّعمّق في دراسة البُعد الثّالث للإنسان هو مَرْبَط الفرس للفَهم والتّفسير في دنيا الإنسان والمجتمع البشريّ. ونتيجة لذلك، أصبحت معظم كتاباتنا تتأثَّر قليلًا أو كثيرًا بمقولة تفكيرنا القائلة بأنَّ الإنسان هو الكائن ذو البُعد الثّالث، وفي طليعتها كتبنا بالعربيّة والإنجليزيّة الصّادرة أخيرًا حول علم الاجتماع الثّقافيّ، والبشر بكونهم كائنات ثلاثيّة الأبعاد[2].

1- Herbert Marcuse, One-Dimensional Man: Advanced Industrial Society, Beacon Press, Boston, 1964.

2- محمود الذّواديّ، المقدّمة في علم الاجتماع الثقافيّ برؤية عربيّة إسلاميّة، ط1، المؤسّسة الجامعيّة للدّراسات والنّشر، بيروت، 2010م. ←

5 ـ وعند تساؤلنا: ما العنصر مِنَ العناصر المذكورة المكوِّنة للبُعد الثّالث للإنسان الذي يملك الدّور الأوَّل والحاسم في ميلاد بقيّة العناصر الأخرى للبُعد الثّالث للإنسان؟ عند التفكير في الأمر والتّحليل للإجابة عن هذا السّؤال، اتَّضح لنا أنَّ اللّغة البشريّة هي العامل القويّ الحاسم والفريد الذي أدَّى إلى ميلاد بقيّة تلك العناصر من منظومة الرّموز الثّقافيّة للبُعد الثّالث عند الجنس البشريّ وتجسّدها.

لذلك، وصفنا اللّغة بأنَّها أُمّ الرّموز الثّقافيّة جميعًا في البُعد الثّالث للإنسان؛ الأمر الذي يعطي مشروعيّة لتسمية الإنسان «الكائن ذو البُعد الثّالث اللّغويّ الثّقافيّ بالطّبع»؛ أي أنّه ليس بالكائن النّاطق فحسب، كما وصفه الفلاسفة والمفكّرون القدماء وحتّى المعاصرون، بل هو أيضًا في الوقت نفسه كائن يلبس دائمًا بطريقة حتميّة كسوة البُعد الثالث للرّموز الثّقافيّة.

وبناء على ما سبق، يجوز تلخيص دور اللّغة المتميِّز في ولادة البُعد الثّالث للإنسان في العبارة الواضحة الدّلالة: أستعمل لغة إذاً فأنا إنسان؛ أي أنَّ بني البشر يكسبون هُويّتهم الإنسانيّة بواسطة هبة اللّغة البشريّة في شكلَيْها المنطوق والمكتوب.

أضواء على اللّغة أم البُعد الثّالث للإنسان

1. اللّغة رمز إنسانيّة الإنسان:

كما أشرنا في السّطور السّابقة، لمّا تساءلنا عن أهمّ عنصر في منظومة الرّموز الثّقافيّة للبُعد الثّالث للإنسان، والذي يقف وراء ميلاد ذلك البُعد المميّز للجنس البشريّ، وجدنا أنَّ اللّغة البشريّة المنطوقة والمكتوبة على الخصوص هي وحدها المؤهَّلة لبروز منظومة الرّموز الثّقافيّة/الثّقافة التي يُمثّلها مفهوم البُعد الثّالث للإنسان. فيصعب إذًا تخيُّل وجود بقيّة عناصر البُعد الثّالث للإنسان، مثل: الدّين والعلم والفكر، من دون حضور اللّغة البشريّة في شكلها المنطوق على الأقلّ. ومن ثَمَّ، جاءت مشروعيّة تأكيدنا المكرَّر في مقولة أبحاثنا المتعدّدة في العلوم الاجتماعيّة والإنسانيّة بأنَّ اللّغة هي أُمّ الرّموز الثّقافيّة جميعًا.

← Mahmoud Dhaouadi, Cultural Sociology within Innovative Treatise: Islamic Insights on Human Symbols, Lanham, USA, University Press of America, 2013.
Mahmoud Dhaouadi, Humans as Third Dimensional Beings: within Social Science and Islamic Perspectives, New York, 2024.

يَحظى موضوعُ اللّغة باهتمام كبير بين الباحثين، فقد ذهب عالِم النّفس «ستيفن بنكر» (Steven Pinker) إلى القول بأنَّ اللّغة هي غريزة في الإنسان مثلها مثل قدرة الإنسان الغريزيّة على المشي؛ أي أنَّها شيءٌ راسخُ الأقدام ومبرمج في الطّبيعة البشريّة[1]. وهذا ما يُفسّر نجاح كلّ الأطفال بكلّ سهولة على استعمال اللّغة بحذاقة. فلو لم تكن المقدرة اللّغوية أمرًا غريزيًّا مبرمجًا في عمقِ صميم الطّبيعة البشريّة لفشل عدد غير قليل من الأطفال في تعلُّم اللّغة، كما يفشلون في تعلُّم القراءة مثلًا.

بعبارة أخرى، إنَّ القدرة على استعمال اللّغة مسألة ديمقراطيّة متاحة لكلّ النّاس في الظّروف العاديّة، ولا يُحرَم منها إلّا نزر قليل من النّاس لأسباب خُلُقيّة أو لأسباب عارضة في حياتهم. إنَّ حرمان هؤلاء من استعمال اللّغة لا يؤدّي بالضّرورة إلى عجزهم عن امتلاك، بدرجاتٍ مختلفة، بقيّة عناصر المنظومة الثّقافيّة؛ مثل: التّفكير وممارسة العلم والمعرفة والتّديّن والتّأثّر بقِيَم وتقاليد المجتمع. تُمثّل مَلَكَة اللّغة، هذه الغريزة البشريّة، مخزونًا مركزيًّا وأساسيًّا في طبيعة الإنسان، ولهذا المخزون وجهان:

أوّلًا: استعمال اللّغة المنطوقة والمكتوبة.

ثانيًا: الاستعداد والقدرة على استعمال بقيّة مكوّنات منظومة الرّموز الثّقافيّة للبُعد الثّالث للإنسان.

إنَّ حضور الوجهَيْن للمَلَكَة اللّغويّة هو بالطّبع الوضع المثاليّ لتمكين أفراد الجنس البشريّ من كامل تمتّعهم بما هو موجود في هذا العالم، ومن ثَمَّ التّأهُّل الكامِل لتأدية دور السّيادة/الخلافة فيه.

يرى العالِمَان «ويليام نوبل» (William Noble) و«لاين دافيدسون» (Iain Davidson)[2] أنَّ اللّغة هي أداة التّفكير الرّمزيّ عند الإنسان، فهي التي تُمكّنه من صياغة المفاهيم والأفكار ونشرها بين الآخرين. ففي نظرهما وقع الانفجار الثّقافيّ

1- Steven Pinker, The Language Instinct: How the Mind Creates Language, Harper-Collins Publishers, Inc., New York, 1994.

2- Lain Davidson & William Noble, The Archaeology of Perception: Traces of Depiction and Language [and Comments and Reply], Current Anthropology, The University of Chicago Press, vol. 30, No. 2, 1989, pp. 125 - 156.

الكبير (The Big Cultural Bang) في دنيا الإنسان بواسطة اللّغة؛ فبها استطاع بنو البشر أن يبتكروا الفنون والتّقنيّات الجديدة للتّعامل مع محيطهم. وهكذا، تتجلّى مركزيّة اللّغة بوجهَيْها في تشكيل هُويّة الإنسان، هذا الكائن الفريد على أَديم هذه الأرض. ومن هنا، تأتي مشروعيّة القول بأنَّ اللّغة هي المصدر الذي لا ينضبَ في قدرته على مدِّ الكائن البشريّ وحده بتاج صفة الإنسانيّة على مرِّ العصور.

2. غياب اللّغة في أشهر تعريف للثّقافة:

نظرًا إلى مركزيّة مَلَكَة اللّغة في نشأةِ منظومة الرّموز الثّقافيّة أو الثّقافة بتعبير علمَي الأنثروبولوجيا والاجتماع على الخصوص، فإنَّ وصف القدماء للإنسان بأنَّه حيوان ناطق وصف مشروع جدًّا؛ لأنَّ اللّغتين المنطوقة والمكتوبة هما أكثر ما يُميِّز الجنس البشريّ عن بقيّة الأجناس الأخرى ويعطيه السّيادة عليها بواسطة منظومة البُعد الثّالث للإنسان. إنَّهما بكلِّ المقاييس مصدر تأهُّل بَنِي البشر وحدهم بكلّ مشروعيّة إلى كسب رهان صفة الإنسانيّة، ومن ثَمَّ السّيادة والخلافة في هذا العالم.

على الرّغم من مركزيّة مَلَكَة اللّغة في هُويّة الإنسان، وتاليًا في بروز منظومة البُعد الثّالث للإنسان في المجتمعات البشريّة، فإنَّ أشهر تعريف لمفهوم الثّقافة في العلوم الاجتماعيّة الغربيّة المعاصرة لا يَذكر اللّغة على أنّها عنصر مركزيّ وأساسيّ في صلب منظومة البُعد الثّالث للإنسان؛ أي أنَّ اللّغة هي العنصر الرّئيس المؤسِّس لظاهرة الثّقافة البشريّة (البُعد الثّالث للإنسان)، وهي (اللّغة) تاليًا جزء منها في الوقت نفسه. وهذا ما لا نجده في أشهر تعريف أنثروبولوجيّ لمنظومة الثّقافة (البُعد الثّالث للإنسان). وقد عرَّف عالِم الأنثروبولوجيا البريطانيّ «إدوارد بيرنت تايلور» (1871م) (Edward Burnett Tylor) الثّقافة (Culture) بأنَّها «ذلك الكلّ المعقَّد الذي يتضمَّن المعرفة والعقيدة والفنّ والأخلاق والتّقليد وأيّ مقدرات وعادات يكتسبها الإنسان كعضو في المجتمع»[1].

يتمثَّل قصور هذا التّعريف الكلاسيكيّ للثّقافة في كونه لا يشير إلى اللّغة ولا يعطيها الصّدارة في مكوّنات منظومة الثّقافة، والحال أنَّ اللّغة هي مُنشئة ظاهرة الثّقافة نفسها بمعناها البشريّ الواسع والشّديد التّعقيد، كما بيَّنّا؛ أي أنَّ ثمّة علاقة عضويّة جدًّا بين اللّغة ومنظومة ثقافتها (البعد الثّالث للإنسان) عند بني البشر.

1- Edgar Borgatta & Rhonda Montgomery, Encyclopaedia of Sociology, 2nd edition, publisher Elly Dickason, vol. 1, 1974, p. 563.

ومن ثَمَّ، يجوز الحديث بمشروعيّة عن قصور تعريف «تيلر» لمفهوم الثّقافة؛ لأنَّه لا يذكر بكلّ وضوح صدارة اللّغة في تعريفه لظاهرة الثّقافة البشريّة، ذلك الكلّ المعقّد، كما جاء في مضمون تعريفه السّابق الذّكر.

3. أستعمل اللّغة إذًا فأنا إنسان:

إنَّ التّحليل السّابق يؤكّد العلاقة الوثيقة بين اللّغة والثّقافة، إذ تكون اللّغة السّبب الرّئيس لبروز ظاهرة الثّقافة الواسعة والمعقَّدة عند الجنس البشريّ. فمَلَكَة اللّغة والثّقافة النّاتجة عنها هما، إذًا، سِمَتان مميّزتان للإنسان؛ أي أنَّ هاتَيْن السّمَتَيْن هما مصدر إنسانيّة الإنسان؛ إذ من دونهما يَفقد الإنسان إنسانيّته، من ناحية، ومشروعيّة سيادته/خلافته في هذا العالم، من ناحية أخرى.

وهكذا، يتَّضح أنَّ اللّغة في شكلَيْها المنطوق والمكتوب هي المفتاح الأوّل الذي يمنح الإنسان وحده صفة الإنسانيّة. وعليه، يصحّ القول بهذا الصّدد على الطّريقة الدّيكارتيّة: أستعمل لغة، إذاً، فأنا إنسان. فلا معنى للحديث عن أسباب تكريم الإنسان في هذا العالم من دون الرّجوع في المقام الأوّل إلى هبة مَلَكة اللّغة التي يتميَّز بها بنو البشر. فاستعمال اللّغة هو من دون شكّ العلامة الرّمزيّة الأسمى التي مكّنت الجنس البشريّ وحده مِن كسب رهان شرف تاج الإنسانيّة.

الجوانب المتعالية لرموز البُعد الثّالث للإنسان

عند التّعمّق في محاولة فَهم طبيعة رموز البُعد الثّالث للإنسان تتجلّى أيضًا خمسة معالِم إضافيّة أخرى حولها، اكتُشِفت بواسطة بحثنا المتواصل. إنَّها معالِم لا يكاد يشير إليها علم الأنثروبولوجيا، ناهيك عن علم الاجتماع، بسبب منظورهما الذي يتبنَّى بقوّة مفهوم الإنسان الطّبيعيّ، ويتحاشى مفهوم الإنسان الثّلاثيّ الأبعاد الذي يُقرّبه من معالم الإنسان الرّبّانيّ الذي يدعو إليه الأستاذ المسيريّ.

أوّلًا: ليس لرموز البُعد الثّالث للإنسان وزن وحجم بالمعنى المادّيّ للأشياء؛ أي أنَّ تلك الرّموز ليست ذات طبيعة مادّيّة، بل هي ذات طبيعة غير مادّيّة/روحيّة/متعالية (transcendental).

وبعبارة أخرى، يتمثَّل جوهر الإنسان وأعزّ ما يملكه في هذا النّوع من الرّموز المتعالية. ويتَّفق هذا كثيرًا مع رؤى الأديان والحكماء والفلاسفة على مرِّ العصور؛ فالقرآن، مثلًا، يؤكّد في آياته المتعدّدة على أهمّيّة أولويّة تبنِّي الإنسان لرموز البُعد

الثّالث للإنسان من تعلّم للقراءة والغوص في العِلم، وكسب رهان التّفكير الدّائم والاتّصاف بالقِيَم النّبيلة، مثل: العدل والخُلُق الفاضل، ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾[1].

إنَّ رموز البُعد الثّالث للإنسان في المنظور القرآنيّ وفي الرّؤية الموضوعيّة التّحليليّة هي بيت القصيد في هُويّة الإنسان، فبها وحدها جاء تشريف الجنس البشريّ بالقيادة والسّيادة والخلافة على وجه الأرض، ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ﴾[2]، فمَنْح الله الخلافة للإنسان وحده على الأرض من بين جميع الكائنات الأخرى والملائكة فيه إشارة ربّانيّة على تميُّز الإنسان.

ثانيًا: أمَّا على مستوى توظيف مفهوم خلوّ رموز البُعد الثّالث للإنسان من عاملَيْ الوزن والحجم في فَهم سرعة ثورة الاتّصالات في عصر العولمة، فنكتفي بذكر بعض الأمثلة: فلماذا تصل الرّسائل والوثائق المرسَلة بالفاكس والإنترنت بسرعة كبيرة مقارنة بالمراسلة بالبريد العاديّ أو حتّى السّريع؟

يمكن تفسير ذلك في أنَّ المراسلة بالفاكس والإنترنت تُلغي عاملَي الوزن والحجم للشَّيء المُرسَل، وهذا يعني أنَّ هذا النّوع مِنَ المراسلة يُحرِّر الشّيء المُرسَل مِن معطياته المادِّيّة (الوزن والحجم)، فيعيده إلى طبيعته الأولى والمتمثّلة في عدم وجود وزن وحجم للرّموز البشريّة.

وبالغياب المطلق أصلًا لهذَين العنصرَين في كلِّ مكوّنات منظومة البُعد الثّالث للإنسان، تتأهَّل هذه الأخيرة بكلّ مشروعيّة للتّنقّل بسرعة فائقة وعجيبة تشبه ما يُروى عن السّرعة المدهشة لتنقّل الكائنات الرّوحيّة والميتافيزيقيّة. وهذا ما يُفسِّر أيضًا مدى شدَّة سرعة تنقّل الكلمة عبر الصّوت. فأصبحت مضربًا للأمثال. فتطير طائرة الكونكورد بسرعة كبيرة تقترب من سرعة الصّوت أو تتفوَّق عليها. وترجع هذه السّرعة الخاطفة؛ لكون الكلمة المنقولة عبر الصّوت في النّداء البسيط على مسافة قريبة بين الأفراد أو في أثناء الكلام بالهاتف على مسافات بعيدة بالهواتف الجوّالة/المحمولة أو القارّة بلا وزن ولا حجم. وتاليًا، فهي طليقة سريعة بطبيعتها لا يُعرقل تنقّلَها السّريع الوزنُ والحجمُ، هذان العنصران المادِّيّان.

ويساعد أيضًا فقدان رموز البُعد الثّالث للإنسان لعاملَي الوزن والحجم على فَهم

1- سورة القلم: الآية 4.

2- سورة البقرة: الآية 30.

القدرة الضّخمة الحاويَة لدى العلب الإلكترونيّة الحديثة (Flash Disk) وتفسيرها. فبالرّغم من صغر حجمها المادِّيّ، تستطيع تلك العلب أن تحوي عشرات ومئات وآلاف الكيلوات من المطبوعات المكتوبة في جرائد ومجلّات وكتب ووثائق، يعود ذلك وفاقًا لطرحنا الفكريّ، الذي يرى أنَّ الطّبيعة الأصليّة لكلمات اللّغات هي طبيعة لا وزن لها ولا حجم. وهي بذلك، كأنَّها لا تحتاج إلى فضاء مادِّيّ لاحتوائها مهما كانت ضخامة حجمها. وهكذا، يتجلَّى أنَّ فهمنا وتفسيرنا لعجائب الثّورة الإلكترونيّة يتحسَّن بمساعدة مفهوم البُعد الثّالث للإنسان الذي تخلو رموزه الثّقافيّة من عاملَيْ الوزن والحجم.

تشير هذه الأمثلة كلّها إلى عرقلة العناصر المادِّيّة (الوزن والحجم) سرعة تنقّل المراسلات والتّواصل بين النّاس. وتاليًا، فهي لا تعمل لصالح تصوّر السّرديّة الفكريّة الغربيّة التي تتبنَّى فقط وبحماس فكرة الإنسان الطّبيعيّ/المادِّيّ وطرد المعالم الأخرى الرّاسخة في كينونة الإنسان، وفي طليعتها منظومة البُعد الثّالث للإنسان، وما لها من علاقات وطيدة وحميمة مع الثّقافة والفكر والرّوحانيّات في عالم البشر.

ثالثًا: لا تتأثَّر رموز البُعد الثّالث للإنسان بعمليّة النّقصان عندما نُعطي الآخرين منها، كما هي الحال في عناصر عالَم المادّة. فإعطاء الآخرين خمسين دينارًا من رأس مالِنا وقنطارًا من قمحنا وعمارة من عماراتنا... كلّها عمليّات تنقص ممّا عندنا من ممتلكات مادِّيّة. أمَّا إذا عَلَّمنا (مَنَحْنا) الآخرين شيئًا من معرفتنا وعلمنا وفكرنا وعقيدتنا وقِيَمنا الثّقافيّة ولغتنا...، فإنَّ ذلك لا ينقص شيئًا من كلِّ واحد من رموزنا الثّقافيّة في منظومة البُعد الثّالث للإنسان. فعدم ترشّح عناصر هذا الأخير للنّقصان، عندما نُعطي غيرنا منها، شهادة على احتضان كينونة الإنسان معالِم تتجاوز مفهوم الإنسان الطّبيعيّ/المادِّيّ الضّيِّق الآفاق، كما رأينا وجهة نظر الأستاذ المسيريّ.

رابعًا: لرموز البُعد الثّالث للإنسان قدرة كبيرة على البقاء طويلًا عبر الزّمان في المجتمعات البشريّة؛ إذ قد يصل مدى بقائها درجة الخلود. فاللّغة، وهي أُمّ رموز البُعد الثّالث للإنسان جميعًا ـ كما ذكرنا ـ لها قدرة فائقة على تخليد ما يُكتب بها .

إنَّ الفكر البشريّ لا يُكتب له الاستمرار والخلود الكاملان من دون أن تحتضن

مضمونه اللّغات المكتوبة، فما كان لفكر كلّ مِن: إخناتون وسقراط وأرسطو وابن رشد والغزالي وابن خلدون وجان جاك روسو (Jean-Jacques Rousseau) ورينيه ديكارت (René Descartes) وديفيد هيوم (David Hume)، وغيرهم من المفكّرين والعلماء، أن يتمتَّع بمدى حياة فكريّة طويلة من دون تسجيله بحروف اللّغات البشريّة المتنوّعة وكلماتها التي تؤهّله لكسب رهان حتّى الخلود.

أمَّا على مستوى المحافظة التّراث الجماعيّ للمجموعات البشريّة وتخليده، فإنَّ للّغات دورًا بارزًا في هذا الشّأن. فاللّغات المكتوبة على الخصوص تُمكِّن المجموعات البشريّة من تسجيل ذاكرتها الجماعيّة والمحافَظة عليها وتخليدها على الرّغم من اندثار وجودها العضويّ والبيولوجيّ ككائنات حيَّة، وتغييرها للمكان وحياة أجيالها المتلاحقة في عصور غير عصورها. فمحافظة لغة الضّادّ محافظة كاملة على النّصّ القرآنيّ خير مثال على مقدرة اللّغة على منح نوع من الخلود بالنّسبة إلى حماية الذّاكرة والتّراث الجماعيَّين من واقع الفناء المتأثّر كثيرًا بعوامل الزّمن والبيئة والوجود الجسميّ العضويّ البيولوجيّ لذات تلك المجموعات البشريّة. ومن جديد، ندرك مدى قصور تصوُّر طبيعة البشر، كما يدعو إليه مفهوم الإنسان الطّبيعيّ/المادّيّ.

ولا تقتصر هذه الأبعاد المتعاليَة غير المادّيّة للّغة المكتوبة فقط، بل إنَّ الاستعمال الشّفويّ للّغة يقترن هو الآخر بدلالات متعاليَة/ميتافيزيقيّة/ روحانيّة. أفلا يلجأ البشر من جميع العقائد والدّيانات إلى استعمال الكلمة المنطوقة في تأمّلاتهم الكونيّة وتضرّعاتهم وابتهالاتهم إلى آلهتهم أو إلى أيّ شيء آخر يعتقدون بأزليَّته أو قدسيّته؟ فبانفرادهم بنوعيّة اللّغة البشريّة عن بقيّة الكائنات الحيّة الأخرى يستطيع أفراد الجنس البشريّ أن يُحرّروا أنفسهم مِنَ العراقيل المادّيّة لعالَم الأرض المادّيّ ويقيموا علاقات وروابط مع العالَم المتعالي/الميتافيزيقيّ/الرّوحانيّ. فبهبة اللّغة البشريّة ينجح بنو البشر في فكِّ حصار المشاغل الدّنيويّة والآنيّة المرتبطة بحاجات الإنسان الطّبيعيّ/المادّيّ، كما يتصوّره فلاسفة ومُفكّرون غربيّون معاصرون، كما رأينا.

وهكذا، يصبح لقاؤهم بالبُعد الرّوحيّ/الميتافيزيقيّ في شتَّى مظاهره أمرًا لا مفرّ منه، فهم يَرَوْنه في أحلامهم ويحفل به خيالهم ويلتقون به من قرب في تجاربهم الدّينيّة والرّوحيّة التي تُعتِق الكائن البشريّ مِن ضيق آفاق الإنسان الطّبيعيّ/ المادّيّ.

خامسًا: تملك الرّموز الثّقافيّة لمنظومة البُعد الثّالث للإنسان قوَّة هائلة تشحن الأفراد والمجموعات بطاقات كبيرة تُمكِّن أصحابها مِن الانتصار على أكبر التّحدّيات بأصنافها المتعدّدة كافّة. فعلى سبيل المثال، أثبتت قِيَم الحرِّيّة والعدالة والمساواة عبر التّاريخ البشريّ الطّويل أنَّها رموز ثقافيّة قادرة على شحن الأفراد والمجموعات بطاقات هادرة جبّارة تشبه إلى حدٍّ ما القوى الغيبيّة الصّاعقة التي لا يستطيع أحد اعتراضَ سبيلها. وهذا ما يوحي به قول الشّاعر العربيّ التّونسيّ أبي القاسم الشّابيّ:

إذا الشّعب يومًا أراد الحياة فلا بُدَّ أنْ يستجيبَ القدر

فمصدر إرادة الشّعوب الحقيقيّة يكمُن في عالَم الرّموز الثّقافيّة للبُعد الثّالث للإنسان؛ أي عندما يجمع النّاس أمرهم للدّفاع عن الحرِّيّة والمساواة والعدل وغيرها من القِيَم البشريّة، وعن حقّهم في الاستقلال واحترام الذّات، يصبح ردّ فعلهم كردِّ فعل القدر الذي لا يُبقي ولا يذر. وهذا ما يُفسّر لجوء النّاس إلى الحديث عن المعجزات في بعض الأحداث الفرديّة أو الجماعيّة التي تدخل سجلّ التّاريخ، بالرّغم من عدم توفّر المعطيات المادِّيّة لذلك. إنّها، في نظرنا، أحداث متأثّرة في العمق بالسّمة الخامسة المتعالية لرموز البُعد الثالث للإنسان، كما وصفناها.

تُمثّل حركة طوفان الأقصى، في 7 أكتوبر/تشرين الأوّل 2023م، شهادة على دور الرّموز الثّقافيّة في دَفْع المقاومين الفلسطينيّين مِن كتائب القسّام وسرايا القدس وغيرهما إلى الهجوم عَلى الإسرائيليّين في غلاف غزَّة وتكبيد قوى العدوّ قتلى وجرحى وخسارة كبيرة في ترسانته العسكريّة الدّاخليّة، وفعلوا الشّيء نفسه لمَّا دخل جيش العدوّ برًّا قطاع غزّة. فإيمان المقاومين بظلم الاحتلال ووجوب التّحرير منه منحهم قوّة الحزم والعزم للتّخطيط الطّويل لهذه المعركة الحاسمة والفاصلة مع «إسرائيل».

ابن خلدون وميزة الإنسان بالفكر

يجوز القول بأنَّ موقف العلوم الاجتماعيّة المعاصرة من اللّغة والثّقافة وعلاقتهما متأثّر بالتّيار الفكريّ الذي تحتضنه الوضعيّة (Positivism). فالوضعيّة بكونها إطارًا فكريًّا تُعطي أهمّيّة كبرى للعوامل والمعطيات المادّيّة لفهم سلوكات الأفراد والظّواهر الاجتماعيّة وتفسيرها؛ إذ ترفض الوضعيّة أصلًا وجود العوامل والمعطيات

غير المادِّيّة، وتاليًا تأثيراتها على السّلوكات البشريّة والظّواهر الاجتماعيّة.

وبعبارة أخرى، تعطي الوضعيّة أهمّيّة قصوى للكمّيّ وتنفر من الكيفيّ؛ ما جعل بعض علماء الأنثروبولوجيا يشكّون حتّى في وجودٍ حقيقيّ للثّقافة[1]، ما أدّى بدوره إلى هيمنة ما نُسمّيه علم الأنثروبولوجيا الطّارد أو علم الاجتماع الطّارد وغياب نظير كلّ منهما، فنعرّفهما باختصار في السّطور الآتية.

رُبَّما لم يستعمل علماءُ الأنثروبولوجيا وعلماء الاجتماع المعاصرون مصطلحَيْ «علم الأنثروبولوجيا الطّارد» و«علم الاجتماع الطّارد». بالنّسبة إلينا، هذان العلمان لا يهتمّان ولا يرغبان بدراسة بعض المعالِم البشريّة لدى الأفراد والمجتمعات؛ نظرًا إلى أنّهما علمان وضعيّان يحتضنان رؤية معرفيّة/إبستيمولوجيّة ضيّقة للأشياء ما يحرمها من الاهتمام بما يُسمَّى العناصر غير المادِّيّة بالمعنى الكامل لمفردة المادِّيّة.

وبعبارة أخرى، فهما علمان يطردان الظّواهر والعناصر غير المادِّيّة من اهتماماتهما للفهم والتّفسير. فعلى سبيل المثال، قاد بعضُ روّاد علم الإنثروبولوجيا بالهجوم على دراسة الثّقافة؛ لأنّهم ينظرون إليها على أنّها شيء مجرَّد/ لا مادِّي، فتساءلوا: هل الثّقافة شيءٌ حقيقيّ؟ فطرح رالف لنتون (Ralph Linton) السّؤال: هل توجد الثّقافة؟ أمّا (Radcliffe-Brown)، فهو يرى أنَّ كلمة الثّقافة لا تُعبِّر عن واقع مجسَّد/مادِّيّ، بل هي شيء مجرَّد ضُبابيّ للغاية.

وأخيرًا، يعتقد (M.A.Spiro) أنَّ الثّقافة لا تملك وجودًا حقيقيًّا. ومن ثَمَّ، فالثّقافة ليست شيئًا حقيقيًّا[2]. وهكذا، فالتّوجّه الوضعيّ لهذه الرّؤية لعلم الإنثروبلوجيا يطرد الثّقافة من الأهمّيّة والدّراسة ويُقصيها. فالتّعامل مع الثّقافة بتلك الطّريقة يشير إلى رؤية فكريّة صديقة لمفهوم الإنسان الطّبيعيّ/ المادِّيّ.

لا يتّفق ابن خلدون مع رؤية كلّ مِن علم الاجتماع الطّارد وعلم الإنثروبولوجيا الطّارد، فيرى أنّه يجب على علم العمران البشريّ الخلدونيّ الاهتمام بالأشياء والظّواهر غير المادِّيّة ودراستها. فيكفي في السّياق الإشارة إلى عنوان أحد فصول مقدّمته الشّهيرة لإبراز حديثه مباشرة عن الأشياء غير المادِّيّة، فيُعنون المقدّمة السّادسة من كتاب المقدّمة على النّحو التالي: «في أصناف المدركين للغيب مِنَ

1- Leslie White, The Concept of Culture, Edina, MN: Alpha Editions, 1973, p. 26.

2- Ibid, p. 29.

البشر بالفطرة أو بالرّياضة ويتقدّمه الكلام في الوحي والرّؤيا»[1]. فيفصّل القول في ذكر المواضيع التّالية: النّبوّة والوحي والكهانة والرّؤيا والإخبار بالغيبيّات؛ مبيّنًا أنّها ظواهر غيبيّة عرفتها الحضارة العربيّة الإسلاميّة، ومن ثَمَّ لا ينبغي طردها وإقصاؤها من اهتمام علم العمران البشريّ بها. وهكذا، يتجلّى أنّ العلماء الغربيّين المعاصرين في علمَيْ الإنثربولوجيا والاجتماع يتبنّون مفهوم الإنسان الطّبيعيّ/المادِّيّ الذي تحدَّث عنه الأستاذ عبد الوهّاب المسيريّ في مطلع هذه المقالة.

أمَّا مفهوم البُعد الثّالث للإنسان فهو، كما رأينا، يتّفق مع رؤية عِلم العمران الخلدونيّ الحاضن لدراسة الجوانب المادِّيّة وغير المادِّيّة (الرّوحانيّات والغيبيّات...) في شخصيّات أفراد البشر، وفي بنيات المجتمعات البشريّة.

فاهتمام صاحب المقدّمة بدراسة العناصر غير المادِّيّة في العمران البشريّ جعله يبرز ظاهرة الفكر المميّزة للجنس البشريّ. يستعمل ابن خلدون كلمة «الفكر» سِمَةً رئيسة يتميَّز بها البشر عن بقيّة الكائنات، ويكسبون بها تفوّقهم وسيادتهم عليها. يبدأ ابن خلدون الباب السّادس من المقدّمة بإلقاء الضّوء على أهمّيّة الفكر في الإنسان الثّلاثي الأبعاد: «فالمقدّمة في الفكر الإنسانيّ الذي تميَّز به البشر عن الحيوانات واهتدى به لتحصيل معاشه، والتّعاون عليه بأبناء جنسه، والنّظر في معبوده، وما جاءت به الرّسل من عنده، فصار جميع الحيوانات في طاعته ومُلكه...»[2].

يشير هذا الاستشهاد بقول ابن خلدون حول تميّز الجنس البشريّ بمعلَم مركزيّ من البُعد الثّالث للإنسان، المتمثّل في ميزة التّفكير التي ينفرد بها الإنسان عن بقيّة الكائنات الأخرى. ومن ثَمَّ، فالإنسان عند صاحب المقدّمة ليس بالإنسان الطّبيعيّ/المادِّيّ، وإنَّما هو الإنسان المفكِّر نتيجة لاحتضانه القويّ للبُعد الثّالث للإنسان في صُلب تركيبة شخصيّته.

1- ابن خلدون، عبد الرّحمن، مقدّمة ابن خلدون (وهي مقدّمة الكتاب المُسمّى كتاب العِبر وديوان المبتدأ والخبر في أيّام العرب والعجم والبربر ومَن عاصرهم من ذوي السّلطان الأكبر)، لا ط، دار الكتب العلميّة، بيروت، 1993م، ص 73 - 95.

2- عليّ عبد الواحد وافي، مقدّمة ابن خلدون، ط7، دار نهضة مصر، القاهرة، 2014م، ج 3، ص 1007 - 1008.

البُعد الثّالث للإنسان وعلم الاجتماع الثّقافيّ

إنَّ تركيزنا على البُعد الثّالث بكونه المربَّع الأوّل في هُويَّة الإنسان لا نعثر عليه في المدارس الفكريّة والنّظريات الحديثة في العلوم الإنسانيّة والاجتماعيّة المعاصرة. فالماركسيّة والبنيويّة الوظيفيّة والتّحليل النّفسيّ والتّفاعليّة الرّمزيّة (Symbolic Interactionism) والمدرسة السّلوكيّة (Behaviorism)؛ كلّها ذات أطروحات معرفيّة/إبستيمولوجية ورؤى فكريّة لا تجعل البُعد الثّالث أمرًا مركزيًّا في صلب هُويّة الجنس البشريّ، كما تبرز ذلك مقولة هذا الدّراسة. وحتّى علم الإنثروبولوجيا المعاصر الذي يُركّز على دراسة الثّقافة في المجتمعات البشريّة، لا ينظر إلى الإنسان على أنَّه كائن لغويّ رموزيّ ثقافيّ بالطّبع، كما تؤكّد مقولة البُعد الثّالث للإنسان. ومن ثَمَّ، غاب مصطلح الإنسان اللّغويّ الثّقافيّ (Homo Linguistico-Culturus) عن أدبيّات العلوم الاجتماعيّة المعاصرة.

في مقابل ذلك، ذهب علماء الاقتصاد وأصحاب الرّؤية المادِّيّة للإنسان إلى وصف طبيعته بأنَّه كائن اقتصاديّ (Homo Oeconomicus). أمَّا علماء السّياسة والمهتمّون بدراسة ميل البشر إلى الانشغال بأمور السّياسة، فقد أطلقوا عليه مصطلح كائن سياسيّ (Homo Politicus). والإنسان عند علماء الاجتماع هو كائن اجتماعيّ (Homo Sociologus)[1].

على الرّغم من تركيز علماء الأنثروبولوجيا المعاصرة على دراسة الثّقافة لدى الإنسان والمجتمع، فإنّهم لم يستعملوا مثل زملائهم مصطلحًا مشتقًّا من كلمة الثّقافة ليصفوا الإنسان بأنّه كائن ثقافيّ (Homo Culturus) في المقام الأوّل. إنَّ هذا التّهميش لأهمِّيّة منظومة اللّغة والرّموز الثّقافيّة/البُعد الثّالث للإنسان ودورها المركزيّ والحاسم في المساعدة على الفهم والتّفسير للظّواهر في دنيا البشر، هو تهميش يضرّ بمصداقيّة فكر العلوم الاجتماعيّة؛ إذ كيف ينتظر ـ والحال على ما هي عليه ـ أن يكون فهم تلك العلوم للظّواهر وتفسيرها متماسكين على المستويَيْن النّظريّ والميدانيّ؟

يُمثّل ذلك التّهميش فقدانًا كبيرًا لدى الباحثين والعلماء في العلوم الاجتماعيّة للقيام بجدِّيّة بالبحث الأساسيّ (Basic Research) الذي يمسّ في هذه الحالة منظومة اللّغة والرّموز الثّقافيّة التي تحتلّ مركزيّة هُويّة الإنسان والمجتمع، كما وقع

1- Ralf Dahrendorf, Homo Sociologicus, Hamburg, Westdeutcher Verlag, 1974.

بيان ذلك. وبغياب البحث الأساسيّ أو تهميشه في دراسة الإنسان الكائن اللّغويّ الثّقافيّ بالطّبع، فإنَّه يصعب الاطمئنان على مصداقيّة الرّؤى المعرفيّة/العلميّة، والنّتائج الميدانيّة التي تتوصَّل إليها العلوم الاجتماعيّة الحديثة؛ إذ هي علوم لم تعتنِ أكثر بالأهمّ (البُعد الثّالث للإنسان/ منظومة اللّغة والرّموز الثّقافيّة) في كينونة هُويّة الإنسان، بل أعطت جُلّ اهتمامها إلى جوانب أقلّ مركزيّة في هُويّة الإنسان، مثل الإنسان الاقتصاديّ والسّياسيّ والاجتماعيّ، وهي معالم فرعيّة في هُويّة الكائن البشريّ. إذ ما كان لها أن توجَد أصلًا من دون حضور اللّغة والرّموز البشريّة/ البُعد الثّالث للإنسان في صلب هُويّة الإنسان.

بعبارة أخرى، يجوز وصف فكر تلك العلوم بأنَّه فكر أعطى أولويّة اهتمامه إلى ما يقترب من المهمّ بدلًا عن إعطائه بالكامل إلى الجانب الأهمّ في هُويّة الإنسان ومجتمعه، وهو البُعد الثّالث للإنسان[1].

وهكذا، يجوز القول بأنَّ غفلة روّاد العلوم الاجتماعيّة الحديثة عن إعطاء الصّدارة لمنظومة اللّغة والرّموز البشريّة في هُويّة الإنسان يشبه عمليّة تغييب الشّجرة والاقتصار على إحضار فروعها فقط؛ إذ إنَّ وصف الإنسان بأنَّه اجتماعيّ واقتصاديّ وسياسيّ أو رقميّ[2] (l'Homo Numericus)، كما ظهر أخيرًا، لا يمكن رؤيته وتجسّمه بحقيقة ميدانيّة من دون حضور منظومة اللّغة والرّموز البشريّة في صلب هُويّة الإنسان. وهذا ما يُفسّر غياب وصف العلماء والباحثين في العلوم الاجتماعيّة للحيوانات بتلك الصّفات البشريّة الفرعيّة (اقتصاديّ وسياسيّ واجتماعيّ) التي تستمدّ أصولها من شجرة منظومة البُعد الثّالث للإنسان (الرّموز الثّقافيّة) التي يتميَّز بها الجنس البشريّ.

كما رأينا، فجهودنا الفكريّة والنّظريّة حول مركزيّة البُعد الثّالث في هُويّة الإنسان جهود مستقلَّة في المقام الأوّل. ومن ثَمّ، ينتمي مفهوم البُعد الثّالث للإنسان معرفيًّا إلى علم الاجتماع الثّقافيّ (Cultural Sociology) لا إلى علم اجتماع الثّقافة (Sociology of Culture)، إنَّه مفهوم يعدّ الثّقافة متغيّرًا مستقلًّا (independent

1- محمود الذّوادي، الثّقافة بين تأصيل الرّؤية الإسلاميّة واغتراب منظور العلوم الاجتماعيّة، ط1، دار الكتاب الجديد المحدودة، بيروت، 2006م، ص 28.

2- Isabelle Compiègne, La société numérique en question(s), Editions Sciences Humaines, Auxerre Cedex, 2011.

variable) في هُويّة الإنسان؛ أي أنَّها عنصر مركزيّ لا عنصر هامشيّ يتّخذ دورًا ذا بالٍ في التّأثير على سلوكات الأفراد والحركيّة الاجتماعيّة للمجتمعات البشريّة.

وهكذا، يحتاج المتخصّصون في العلوم الاجتماعيّة إلى إعطاء الرّموز الثّقافيّة/البُعد الثّالث للإنسان ما يُسمَّى «البرنامج القويّ» (strong program) لا «البرنامج الضّعيف» (weak program) في بحوثهم الميدانيّة (الإمبريقيّة) وأطروحتهم النّظريّة.

وبعبارة أخرى، فالبُعد الثّالث للإنسان يجب أن يكون مركزيًّا في أعمالهم الفكريّة والميدانيّة في العلوم الاجتماعيّة، وهذا ما لم يكن موجودًا أصلًا في علم الاجتماع الغربيّ منذ بداياته الأولى. فعلماء الاجتماع الغربيّون الأوائل المنظّرون حول الثّقافة مثل: «فيبر» و«إميل دوركهايم» (Émile Durkheim) و«كارل ماركس» (Karl Marx) و«تالكوت بارسنز» (Talcott Parsons) و«تشارلز ميلز» (Charles Mills) والشّيوعيّون والفاشيّون وآخرون، عُرِفوا بأنَّهم كانوا أصحاب «برنامج ضعيف»، بالنّسبة إلى أهمّيّة الثّقافة في أعمالهم المنشورة. لقد أعطوا الثّقافة/البُعد الثّالث للإنسان أهمّيّة صغيرة في تحاليلهم السّوسيولوجيّة[1]. كما أنَّ المدرسة الفكريّة (Birmingham School) و«بيير بورديو» (Pierre Bourdieu) و«ميشال فوكو» (Michel Foucault) ومنظّرو نظريّة إنتاج الثّقافة واستهلاكها لم يقوموا بأفضل ممّا قام به روّاد علماء الاجتماع الغربيّون؛ أي أنّهم تبنّوا كذلك «البرنامج الضّعيف» في دراسة الثّقافة.

لا يزال اتّجاه «البرنامج الضّعيف» هو المهيمن، اليوم، في الدّراسات السّوسيولوجيّة للثّقافة، على الرّغم من أنَّ اتّجاه «البرنامج القويّ» لعلم الاجتماع الثّقافيّ يَلقى اهتمامًا متزايدًا بين علماء الاجتماع منذ ميلاد ما يُسمَّى «التّحوُّل الثّقافيّ» (Cultural Turn) في أواخر التّسعينيّات مِنَ القرن الماضي[2]. وثمّة إجماع واسع بأنَّ عالِم الأنثروبولوجيا الأمريكيّ «كليفرد جيرتس» (Clifford Geertz) هو الذي انطلق على يديه «البرنامج القويّ» لدراسة الثّقافة/البُعد الثّالث للإنسان.

1- Leo Semashko, Jean-Pascal Daloz & Aykan Erdemir, Book International Sociology Review of Books, 2006. Vol. 2, No. 6, (pp. 829 - 38), p. 831 - 838.

2- Janet Wolff, Cultural Studies and the Sociology of Culture, Contemporary Sociology, Vol. 28, No. 5, September 1999, (pp. 499 - 506), p. 503.

توجد مسلَّمتان لهذا البرنامج تتمثّلان في:

1 - استقلاليّة الثّقافة.

2 - الثّقافة بكونها نصًّا للحياة الاجتماعيّة.

وبعبارة أخرى، فالثّقافة هي النّصّ الدّاخليّ (الخفيّ) للحياة الاجتماعيّة.

يرى عالِم الاجتماع الفرنسيّ «آلان توران» (Alain Touraine) أنَّه يجوز تفسير «البرنامج الضّعيف» الذي تبنَّاه/يتبنَّاه علماء الاجتماع في دراستهم للثّقافة، بأنَّه يرجع إلى إهمالهم التّركيز على الفاعلين الاجتماعيّين (Les acteurs sociaux). ويدَّعي «توران» أنَّ علماء الاجتماع يميلون عمومًا إلى الاهتمام بدراسة النّظم (systèmes) الكبيرة، مثل المجتمعات الصّناعيّة والرّأسماليّة. ويُحاجِج بهذا الصّدد أنَّ الفكر المعاصر قد أعطى حدًّا أدنى للجانب النّفسيّ/الذّاتيّ (subjective) للفاعلين الاجتماعيّين أمثال «كارل ماركس» (Karl Marx) و«سيغموند فرويد» (Sigmund Freud) و«فريدريك نيتشه» (Friedrich Nietzsche)[1].

فمن دون دراسة الرّموز الثّقافيّة من على أنّها معلم أساسيّ للذّاتيّة البشريّة (human subjectivity) يكون من الصّعب وجود تحليل سوسيولوجيّ ذي «برنامج قويّ» بالنّسبة إلى دراسة الثّقافة؛ أي يدرس بني البشريّ من كونهم فاعلين اجتماعيّين ذوي مقدرة كبيرة بطبيعتهم على استعمال الرّموز الثّقافيّة. ويحتاج هذا الأمر إلى ما يُسمّيه كليفورد غيرتز (Clifford Geertz) الوصف المكثَّف (thick description)؛ أي الوصف المفصَّل لمنظومة الرّموز الثّقافيّة.

وعلى هذا الأساس، فإنَّ منهجيّتنا في دراسة الثّقافة تختلف عن نظيراتها عند معظم علماء الاجتماع. نحن نبدأ بدراسة الثّقافة/الرّموز الثّقافيّة بكونها معلمًا أساسيًّا فطريًّا مُميّزًا للطّبيعة البشريّة انطلاقًا من اللّغة؛ هذه السّمة الغريزيّة في طبيعة الإنسان، كما وصفها العالِم ستيفن بينكر (Steven Pinker)[2]. من ناحيتهم، يدرس علماء الاجتماع الثّقافة على أنّها نمط جماعيّ في المجتمعات والحضارات.

يُشدّد «آلان توران» على أهمّيّة جمع العلوم الاجتماعيّة في تحاليلها بين الأنساق الاجتماعيّة (social systems) والفاعلين الاجتماعيّين من أجل فهم وتفسير أفضل

1- Michel Wieviorka, Les sciences sociales en mutation, Auxerre Cedex; Editions Sciences Humaines, 2007, p. 25 - 27

2- Steven Pinker, The Language Instinct: How the Mind Creates Language.

للعمل الاجتماعيّ (social action) في المجتمع؛ «فليس مِنَ المبالغة ولا المفارقة القول بأنَّ فكرة المجتمع تُمثّل عاملًا معرقلًا رئيسًا يضرّ تطوّر العلوم الاجتماعيّة؛ إذ أنَّه يستند على مبدإ الفصل، وحتّى التّعارض بين الأنساق الاجتماعيّة والفاعلين الاجتماعيّين، بينما تعني فكرة المجتمع التّواصل المباشر بين الطّرفين»[1].

وهكذا، يتّضح أنَّ مقولتنا في مركزيّة البُعد الثّالث للإنسان في هُويّة الجنس البشريّ ليست متأثّرة بالتّراث السّوسيولوجيّ الغربيّ، فهي بتعبير ابن خلدون: «اعلم أنَّ الكلام في هذا الغرض مستحدث الصّنعة، غريب النّزعة، عزيز الفائدة، أعثر عليه البحث، وأدَّى إليه الغوص»[2].

«اقرأ» الفعل الثّقافيّ العمرانيّ ميزة الإنسان

يحتضن الخطاب القرآنيّ حرصًا كبيرًا جدًّا على أهمّيّة الثّقافة للجنس البشريّ، وهو ما أعطى مشروعيّة ضخمة لبدء الوحي القرآنيّ بفعل «اقرأ» بدلًا عن غيره مِنَ الأفعال الأخرى المناسِبة أيضًا لبدء الوحي بها؛ إذ كان ممكنًا وملائمًا، مثلًا، أنْ يُخاطَب الرّسول محمّد ﷺ في أوّل لقاء مع جبريل بأحد الفعلَيْن في هاتَين العبارتَين: «تاجرْ باسم ربّك» أو «افلح باسم ربّك». وهي مسألة لا يُثيرها المفسّرون عمومًا في تحليلاتهم لمغزى افتتاح أوّل سورة قرآنيّة نزلت على النّبيّ العربيّ بفعل «اقرأْ»، ألا وهي سورة العَلَق. فعلى سبيل المثال، لا يُعلّق كلّ مِنَ السّيّد قطب ومحمّد عابد الجابر على هذا الموضوع في مجلّداتهما لتفسير القرآن الكريم.

نعتقد أنَّه يجوز القول بسهولة إنَّ الفعل «اقرأْ» يحمل في عمقه شحنة التّأهُّل لبناء الحضارات الإنسانيّة في أشكالها المختلفة عبر العصور منذ الزّمن السّحيق. ففعل «اقرأ» يُمثّل الرّمز العملاق لميلاد ما نُسمّيها منظومة رموز البُعد الثّالث للإنسان في صميم الكائن البشريّ. تتمثَّل تلك الرّموز في اللّغة والفكر والدّين والمعرفة/ العلم والقوانين والقِيَم والأعراف الثّقافيّة والأساطير.

كما أكَّدنا في الصّفحات السّابقة، فنحن نُطلق على تلك الرّموز مصطلح البُعد الثّالث للإنسان؛ لكَوْن الطّبيعة البشريّة تتكوَّن ـ في تصوّرنا ـ من ثلاثة عناصر (الجسد والرّوح والبُعد الثّالث) لا من عنصرَيْن (الجسد والروح)، كما

1- Michel Wieviorka, Les sciences sociales en mutation, p. 28.

2- ابن خلدون، مقدّمة ابن خلدون، ص 29.

هـو سـائد فـي الشّـرق والغـرب.

إنَّ تلـك الرّمـوز الثّقافيّـة/ البُعـد الثّالـث للإنسـان هـي بيـت القصيـد فـي كينونـة الإنسـان، فبهـا وحدهـا أتـت مشـروعيّة سـيادة الإنسـان وخلافتـه علـى وجـه الأرض. فهـذه المنظومـة هـي الأسـاس لوجـود مـا يُسـمّيه ابـن خلـدون ظاهـرة العمـران البشـريّ.

وبعبـارة أخـرى، لا وجـود لمعالِـم العمـران الإنسـانيّ علـى الأرض وغيرهـا مـن دون امتـلاك الجنـس البشـريّ لناصيَـة منظومـة البُعـد الثّالـث للإنسـان، وفـي طليعتهـا مهارتـي القـراءة والكتابـة اللتيـن يتميَّـز بهمـا الإنسـان عـن بقيّـة المخلوقـات.

وهكـذا، فـإنَّ افتتـاح نـزول الوحـي علـى النّبـيّ العربـيّ محمّـد (ص) بفعـل «اقـرأ» يشـير بوضـوح إلـى أنَّ الإنسـان كائـنٌ ثقافـيٌّ فـي المقـام الأوّل خلافًـا للرّؤيـة الوضعيّـة الغربيّـة التـي تـرى أنَّـه إنسـان طبيعيّ/مـادّيّ؛ إذ إنَّ فهـم سـلوكات النّـاس وحركيّـة العمـران البشـريّ وتفسـيرهما يتطلَّبـان علـم الاجتمـاع الثّقافـيّ بالتّعبيـر السّوسـيولوجيّ الحديـث.

الرّؤية القرآنيّة للرّموز الثّقافيّة

حتّـى نتعـرَّف بتفاصيـل أكثـر علـى الموقـف القرآنـيّ القـويّ نحـو الرّمـوز الثّقافيّـة، وكذلـك علـى أهمّيّتهـا فـي هُويّـة الإنسـان فـي المنظـور القرآنـيّ، فإنَّـه ليـس ثمّـة أفضـل مِـنَ القـرآن الكريـم نفسـه الـذي يشـكّل المرجـع الأوّل للإسـلام فـي شـتَّى المجـالات. ومـن ثَـمَّ، نحـاول تقديـم الرّؤيـة المعرفيّـة القرآنيّـة لطبيعـة منظومـة الرّمـوز الثّقافة/البُعـد الثّالـث للإنسـان. وإذا نجحـت قراءتنـا فـي فهـم مضمـون الآيـات القرآنيّـة التـي لهـا علاقـة بالرّمـوز الثّقافيّـة، فإنّنـا نكـون قـد كسـبنا الرّؤيـة المعرفيّـة الإسـلاميّة الأصحّ عـن طبيعـة الثّقافـة. وبذلـك، نكـون قـد سـلَّحنا أنفسـنا بأفضـل مفهـوم إسـلاميّ للثّقافة يُشـجّع الباحـث علـى ترشـيحه للمقارنـة، ورُبَّمـا للمنافسـة مـع مفهـوم الثّقافـة، كمـا وقـع ويقـع اسـتعماله فـي العلـوم الإنسـانيّة والاجتماعيّـة الغربيّـة المعاصـرة. ورُبَّمـا تسـاعد هـذه العمليّـة المعرفيّـة علـى بنـاءِ مفهـوم للثّقافـة ذي مصداقيّـة أكبـر بالنّسـبة إلـى الباحثيـن المهتمّيـن بالشّـأن الثّقافـيّ مـن وجهَـة الرّؤيـة المعرفيّـة الإسـلاميّة علـى الخصـوص.

إنَّ منهجيّتنـا فـي استكشـاف الرّمـوز الثّقافيّـة وطبيعتهـا فـي النّـصّ القرآنـيّ ـ كامتـداد لفعـل «اقـرأْ» الثّقافـيّ ـ تتكـوَّن مـن ثـلاث خطـوات:

- هـل توجـد إشـارات واضحـة فـي القـرآن تُميِّـز الإنسـان عـن غيـره فـي خلافتـه علـى الأرض؟

- العثور على آيات قرآنيّة تتحدَّث بصراحة مطلقة عن تميُّز الجنس البشريّ عن بقيّة الأجناس الحيَّة الأخرى.
- إلى أيّ شيء تُرجِع الآيات القرآنيّة تَمَيُّز الجنس البشريّ وتفوُّقه؟

1 ـ يحفل النّصّ القرآنيّ بالآيات التي تُعطي مكانة خاصّة ومتميِّزة للإنسان من بين كلّ المخلوقات الأخرى، سواء أكانت كائنات روحيّة مثل الملائكة أم حيوانات ودوابّ أخرى تعيش على هذه الأرض مثل الإنسان. فصورة الإنسان في القرآن هي صورة الكائن الفريد الذي يحتلّ المرتبة الأولى بعد الله على وجه الأرض. ومن ثَمَّ، فلا منازع له على الإطلاق في تأهّله لإدارة شؤون هذا العالَم وأخذ مقاليد السّيادة (الخلافة) فيه. ولندع آيات القرآن تُشخّص لنا بقوّة تلك المكانة الفريدة التي يتمتَّع بها الجنس البشريّ وحده بين كلّ الكائنات الأخرى.

نقتصر هنا على إبراز ذلك عبر خمس حالات تحدَّث فيها القرآن بكلّ وضوح عن تميُّز الإنسان عن غيره من المخلوقات الأخرى؛ ففي الآية 30 من سورة البقرة، يصف القرآن آدم الإنسان بأنَّه خليفة الله في الأرض: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾، ولا يحتاج المرء هنا إلى شرح مدى أهمِّيّة هذا المنصب (خلافة الله في الأرض الذي وُلّيها الإنسان وحده دون سواه من الملائكة والمخلوقات الأخرى على الأرض).

2 ـ أمَّا ميزات الإنسان المطلقة التي تتحدَّث عنها الآيات القرآنيّة الثّلاثة (31ـ32ـ33) من السّورة نفسها، فهي تتمثَّل في اصطفاء الله لآدم بالمعرفة والعلم أكثر من غيره، بما فيهم الملائكة: ﴿وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِى بِأَسْمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣١﴾ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٣٢﴾ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ أَنۢبِئْهُم بِأَسْمَآئِهِمْ ۖ فَلَمَّآ أَنۢبَأَهُم بِأَسْمَآئِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّىٓ أَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ﴾.

ونتيجةً للميزتَيْن السّابقتَيْن اللّتَيْن حُرِمَت منهما الملائكة وبقيّة الكائنات وحصل عليهما الإنسان وحده، جاء أمر الله للملائكة بالسّجود لآدم دون غيره، ليكون علامة تكريم وتمييز ثالثة لآدم: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِـَٔادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾[1]. وأمَّا الآية 70 من سورة الإسراء،

1- سورة البقرة: الآية 34.

فهي تَستعمل فعلَيْ «كرّم» «وفضّل»؛ لإبراز سمَتَيْ تُميّز بني آدم عن غيرهم من مخلوقات الأرض: ﴿ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ﴾[1].

فهذه الآيات القرآنيّة توضح بما لا يدع مجالًا للشّكّ، بأنَّ الإنسان كائنٌ خاصٌّ متميِّز عن غيره من مخلوقات الأرض والملائكة. فالرّؤية القرآنيّة للجنس البشريّ تُمثّل قطيعة معرفيّة كاملة مع نظريّة التّطوّر عند «تشارلز داروين» (Charles Darwin) وأصحابه؛ إذ أنَّ خلق آدم في الرّؤية القرآنيّة يُمثّل حالة خاصّة في الخَلق هي في قطيعة مع كلّ من الملائكة وعوالم المخلوقات هنا على الأرض. إنَّ خلق آدم تميَّز عن غيره بواسطة هبة المعرفة/العلم التي أعطاها الله إيّاه دون سواه. فبهذه المقدرة المعرفيّة العالية ـ التي هي جزء بارز في منظومة الرّموز الثّقافيّة ـ جاءت مشروعيّة خلافة آدم لله بتكريمه وتفضيله في الأرض وسجود الملائكة له.

3 ـ تربط آيتان مِنَ القرآن الكريم سجود الملائكة لآدم بنفخ روح الله فيه؛ فآية ﴿ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴾[2]، نجدها مُكرَّرة مرَّتين في سورتَي الحجر (الآية 29) وص (الآية 72).

إنَّ التّساؤل عن معنى كلمة «روحِي» الواردة في السّورتَيْن تساؤل مشروع جدًّا؛ لأنَّ الصّيغة التّركيبيّة لكلمات الآية تُفيد بأنَّ طَلَبَ سجود الملائكة لآدم تلا نفخَ روح الله فيه؛ أي ثمّة علاقة قويّة، إنْ لم تكن سببيّة بين عمليّة نفخ الرّوح الإلهيّة في آدم ودعوة الله الملائكة إلى السّجود له. وكما هو معروف، فإنَّ كلمة الرّوح في القرآن أتت بمعانٍ مختلفة، وفي طليعتها بثّ الحياة في الكائنات.

إنَّ اطّلاعنا على عددٍ من كُتُب المفسّرين لكلمة «روحِي» في هذه الآية، أفاد أنَّ معظمهم فسّر لفظ «روحِي» في الآية المذكورة بالقدرة على بثّ الحياة في الكائنات. فتفسير الجلالَيْن يقول: «وإضافة الرّوح إليه تشريف لآدم. والرّوح جسم لطيف يحيا به الإنسان بنفوذه فيه...»[3].

وأمّا المفسِّر السّوريّ المشهور، اليوم، عفيف عبد الفتّاح طبّارة فيُقدّم لنا هذا

1- سورة الإسراء: الآية 70.

2- سورة ص: الآية 72.

3- جلال الدّين محمّد بن أحمد المحلّي و جلال الدّين عبد الرّحمن بن أبي بكر السّيوطيّ، تفسير الجلالين، قدّم له وراجعه مروان سوار، ط7، دار المعرفة، بيروت، 1993م. ص 604.

الشّرح التّفسيريّ لمعنى كلمة «روحِي» في الآية: «ونفختُ فيه مِن قدرتي، أو بعبارة أخرى، فإذا أَفَضْتُ عليه ما يحيا به من الرّوح التي هي مِن أمري.. فخرُّوا له ساجدين»[1].

ونختم بتفسير الشّيخ متولّي الشّعراويّ، أشهر المفسّرين المصريّين في العصر الحديث، فيصوغ معنى روح الله ونفخها في آدم على النّحو الآتي: «والنّفخ من روح الله لا يعني أنَّ النّفخ قد تمَّ بدفع الحياة عن طريق الهواء في فم آدم. ولكنَّ الأمر تمثيل لانتشار الرّوح في جميع أجزاء الجسد. وقد اختلف العلماء في تعريف الرّوح، وأرى أنّه مِنَ الأسلم عدم الخوض في ذلك الأمر؛ لأنَّ الحقّ سبحانه هو القائل: ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴾[2]»[3].

الواضح من مضمون هذه التّفاسير أنَّ معنى لفظ «روحِي» اقتصر على مجرَّد معنى قدرة الله على بثِّ الحياة في آدم التي لا يعرف البشر أسرارها، ومن ثَمَّ دعا الشّيخ الشّعراويّ إلى تحاشِي الخوض فيها.

المعنى الثّقافيّ لكلمة «روحِي»

إنَّ الاقتصار على التّفسير المذكور أعلاه لمعنى كلمة «روحِي» لا يسمح لآدم الإنسان وحده بتبنِّي منصب خلافة الله في الأرض وسجود الملائكة له تكريمًا لخصوصيّة وتميُّز خلقه. فالله لم يبثّ الحياة في الإنسان فقط، بل بثَّها أيضًا في جميع الكائنات الحيَّة، فمجرَّد بثّ الحياة في الإنسان لا تؤهِّله وحده لخلافة الله على الأرض. فلا بُدَّ، إذًا، مِنَ البحث عن معنى آخر للفظ «روحي» يُفسِّر بقوّة مكانة تميُّز الإنسان وتفضيله على بقيّة المخلوقات في إدارة شؤون الأرض ليكون خليفة وحيدة لله.

وكما ذكرنا، هنا يأتي، في رأينا، دور العلوم الإنسانيّة والاجتماعيّة في «مساعدة

1- عفيف عبد الفتّاح طبّارة، روح القرآن الكريم تفسير جزء يس، ط4، دار العلم للملايين، بيروت، 1987م.

2- سورة الإسراء: الآية 85.

3- محمّد متولّي الشّعراويّ، تفسير الشّعراويّ (خواطري حول القرآن الكريم)، لا ط، مطابع أخبار اليوم، مصر، 1991م.

مفسِّري القرآن» وهديهم إلى المعنى الملائم الذي ينبغي أن يُعطَى إلى كلمة «روحي» في آية: ﴿ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴾[1]. فالكثير من المفسّرين المحدِّثين يستعينون باكتشافات العلوم الحديثة في تفسير عدَّة مِنَ الآيات القرآنيّة التي لها علاقة بخَلق الإنسان وفَهم عمل مخّه وجسمه أو لها علاقة بالظّواهر الطّبيعيّة في الكَوْن، مثل الشّمس والقمر والنّجوم والجبال والبحار والبراكين والزّلازل؛ ما عزَّز فكرة إعجاز القرآن، فازدادت المؤلَّفات وكَثُرَ انعقاد النّدوات والمؤتمرات في هذا الميدان في العالم الإسلاميّ الحديث.

نتَّفق مع المفكّر الإسلاميّ وعالِم الجيولوجيا الشّهير الدّكتور زغلول النّجار الذي يؤكّد على أنّ الفهم الصّحيح للكثير مِنَ الآيات القرآنيّة لا يمكن أن يحصل من دون الاعتماد على الاكتشافات العلميّة ذات المصداقيّة العالية حول الإنسان والظّواهر الطّبيعيّة للعالَم/للكَوْن. والمفسِّرون المحدِّثون مطالَبون هم أيضًا، وبالدّرجة نفسها، بالإفادة مِن الرّصيد المعرفيّ العلميّ للعلوم الإنسانيّة والاجتماعيّة المعاصرة في ما له علاقة بفَهم سلوك الأفراد والجماعات وحركيّة المجتمعات والحضارات والمعالِم الثّقافيّة البشريّة. فهذه العلوم تساعد بالتّأكيد على القرب من معنى كلمة «روحي» في الآية المشار إليها.

إنَّ علوم الأنثروبولوجيا والاجتماع والنّفس تُجمع على أنَّ الإنسان يتميَّز ويتفوَّق على غيره من الكائنات الأخرى بما تُسمّيه تلك العلوم بالثّقافة (Culture)، أو ما أَطلقنا عليه هنا مصطلح الرّموز الثّقافيّة: اللغة، الفكر، المعرفة، العلم، الدّين، القِيَم والأعراف الثّقافيّة؛ أي أنَّ الجنس البشريّ ينفرد بتلك المنظومة من الرّموز الثّقافيّة، وهي التي أهَّلته وحده في الماضي وتؤهِّله اليوم وفي المستقبل إلى اتّخاذ دور خليفة الله في الأرض.

وبعبارة أخرى، تصبح آية ﴿ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى ﴾ دالّة على أنَّ النّفخة الإلهيّة في آدم هي في المقام الأوّل نفخة ثقافيّة بالمعنى المعاصر الذي تعطيه العلوم الإنسانيّة والاجتماعيّة لمصطلح الثّقافة؛ إذ بهذه الأخيرة يُفسِّر علماء تلك العلوم تَمَيُّز الإنسان وسيادته في هذا العالم على بقيّة المخلوقات. ومن ثَمَّ، فكلمة روحِي في الآية: ﴿ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى ﴾ تعني في تأويلنا نفخة الرّموز الثّقافيّة في آدم وحده التي أعطته، دون سواه، مقاليد الخلافة في الأرض وما تَبِعَها مِن سجود

1- سورة ص: الآية 72.

الملائكة له. بهذه القراءة الثّقافيّة لمعنى كلمة «روحِي» في الآية يتّضح مدى تحسُّن مصداقيّة تفسير معاني آيات القرآن الكريم، لو استعان المُفسِّرون المحدِّثون بالرّصيد العلميّ الحديث لكلٍّ مِن علوم الطّبيعة وعلوم الإنسان والمجتمع على حدّ السّواء.

إنَّ تأويلنا/تفسيرنا لكلمة «روحِي» بمعنى منظومة الرّموز الثّقافيّة هي عمليّة منهجيّة بحثيّة تندرج بامتياز في منظور إسلاميّة المعرفة؛ لأنَّها تجمع بين ما يقوله العقل والنّقل (المنهج الإسلاميّ المعرفيّ الأصيل) حول الرّموز الثّقافيّة، بسبب ما تجده من تناسق وانسجام في مضمون خطاب الطّرفَيْن بخصوص ظاهرة مُحدَّدة (منظومة الرّموز الثّقافيّة). فتأويل معنى «روحِي» في منظومة الرّموز الثّقافيّة يمنح مشروعيّة كبيرة لبدء الوحي القرآنيّ على الرّسول محمّد (ص) بفعل «اقرأْ» هذا الفعل الحضاريّ بامتياز، الذي يرمز بقوَّة إلى أنَّ الإنسان كائن ثقافيّ بالطّبع.

الرّوح مفهوم للبُعد الثّالث للإنسان

يقع استعمال المفهوم الإجرائيّ (operational concept) في العلوم الاجتماعيّة الوضعيّة الحديثة؛ لتحديد الظّاهرة المدروسة بما يُستخدم في ملاحظتها وقياسها. ومن ثَمَّ، فإنَّه ينبغي على المتخصّصين في هذه العلوم أن يحاولوا صوغ الظّواهر الاجتماعيّة والأفكار المُبهمة في مؤشّرات وملاحظات محسوسة؛ أي صوغها قدر الإمكان في معطيات كمِّيّة وقابلة للقياس المحسوس، بحيث تصبح تلك الظّواهر والأفكار مجسَّمة وقابلة للتّعامل معها ميدانيًّا/إمبريقيًّا.

إنَّ عمليّة الإمبريقيَّة هي من دون شكّ مستوحاة من إبستيمولوجيا العلم والمعرفة الوضعيَّين الغربيَّين الحديثَيْن. فتعتمد هذه الإبستيمولوجيا بشدَّة في فهمها وتفسيرها للظّواهر على العوامل والأسباب الكمِّيّة والقابلة للقياس. ويختلف نجاح عمليّة الإمبريقيّة مِن صنف من الظّواهر إلى آخر. وعلى سبيل المثال، ما يُسمَّى بالظّواهر الذّاتيّة (المشاعر الشّخصيّة، الآراء...) يصعب صوغها صياغة إمبريقيّة، وذلك خلافًا للظّواهر المادِّيّة المحسوسة في المحيط الخارجيّ. ومع ذلك، فلا بُدَّ من بذل الجهود اللّازمة للوصول قدر الإمكان إلى التّعرُّف على الجوانب الخفِيّة للظّواهر المُبهَمَة الغامضة.

وكما ذكرنا، فإنَّ معنى النّفخة الرّوحيّة الإلهيّة في الآية القرآنيّة في تفسيرات

المفسّرين يبقى غامضًا. ومن هنا، نحتاج إلى ابتكار منهجيّة جديدة تتجاوز مبادئ المنهج الوضعيّ، وتكون قادرة على تحريرنا مِن استعمال رموز مُبهمة وعامَّة لا تساعد على الحصول على فَهمٍ قريب وأكثر واقعيّة لطبيعة النّفخة الرّوحيّة الإلهيّة التي يتحدَّث عنها القرآن.

ومن أجل استجلاء الغموض الذي يحيط بطبيعة النّفخة الرّوحيّة الإلهيّة اخترنا تبنِّي المنهجيّة الآتية:

1 ـ يجب علينا التّعرّف بطريقة موضوعيّة وبمؤشّرات محسوسة على تلك العناصر التي يتميَّز بها الجنس البشريّ عن بقيّة الأجناس الحيَّة الأخرى وتجعله يتَّصف بالتّفوُّق والسّيادة عليها. وكما أشرنا من قبل، فرموز البُعد الثّالث للإنسان (اللّغة والفكر والعقائد والمعرفة/العلم والقِيَم والمعايير الثّقافيّة والقوانين والأساطير...) هي التي تُميّز أكثر من غيرها من الصّفات الجنس البشريّ عن غيره من الأجناس الأخرى.

2 ـ إنَّ الآيتين القرآنيَّتَيْن المشار إليهما هنا تتحدَّثان بوضوح حول مكانة الإنسان المتميِّزة بين بقيّة الكائنات الأخرى في هذا الكون، بما فيها الملائكة أنفسهم الذين دعاهم الله للسجود لآدم. ويبدو من سياق الآيَتَيْن أنَّ نفخة روح الله في ذات الإنسان هي السّبب الرّئيس وراء تبوُّء الجنس البشريّ هذه المكانة الخاصّة في الكون. فالتّعبير القرآنيّ في الآيَتَيْن يُوحي بأنَّ الله طلب من الملائكة السّجود لآدم بعد حدوث وقوع نفخة روح الإله في صلب الذّات الآدميّة، لا قبلها.

فالتّحليل الموضوعيّ للنّصّ القرآنيّ بهذا الصّدد يشير بكلّ وضوح إلى تفوُّق وسيادة جنس الإنسان على بقيّة الأجناس الأخرى. فمن جهة، تُرجع العلوم الاجتماعيّة الحديثة؛ مثل علم الاجتماع وعلم النّفس وعلم الأنثروبولوجيا، تفوّق الجنس البشريّ على بقية الأجناس الأخرى إلى تميّز الإنسان بمهارات عالم رموز البُعد الثّالث للإنسان.

ومن جهة ثانية، يبدو مِنَ النّصّ القرآنيّ بأنَّ سيادة الإنسان وخلافته في الكون ترتبطان شديد الارتباط بنفخة روح الله في صميم ذات الإنسان. وفي رأينا، لا يوجد أيّ تناقض بين المنظورَيْن؛ إذ أنّه يمكن القول إنَّ الرّؤية القرآنيّة تنظر إلى رموز البُعد الثّالث للإنسان على أنَّها أهمّ جزء على الأقلّ من نفخة روح الله في الإنسان. ومن ثَمَّ يتَّفق المنظوران على الدّور الحاسم الذي تتّخذه منظومة

البُعد الثّالث للإنسان في تميّز الجنس البشريّ وتفوّقه على بقيّة الكائنات الحيّة الأخرى. ومع ذلك، يجوز أن يكون لنفخة روح الله في الذّات الآدميّة معنى أوسع من مجرَّد البُعد الثّالث للإنسان؛ أي أنَّ نفخة روح الله تشمل كلّ شيء يُميّز البشر عن غيرهم مِنَ الكائنات. إنَّ الرَّسم ـ أسفله ـ يُبيِّن النّقاط المشتركة بين عالَم رموز البُعد الثّالث للإنسان ونفخة روح الله بكونهما عنصرَين أساسيَّين لتميّز الجنس البشريّ وتفوّقه.

مصدر تفوّق/ تميّز الإنسان

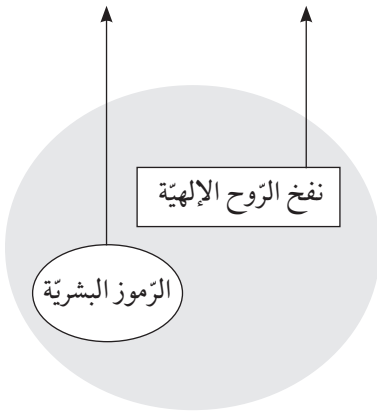

لقد أوضح تحليلنا المنهجيّ السّابق الطّبيعة الشّاملة لنفخة الرّوح الإلهيّة، ونحن نرى أنَّ هذه الأخيرة يجب أن تشمل أوَّل ما تشمل الرّموز البشريّة. وبعبارة أخرى، إنَّ رموز البُعد الثّالث للإنسان يجب أن تكون العنصر المركزيّ في نفخة الرّوح الإلهيّة، أو أن تكون منظومة البُعد الثّالث للإنسان هي كلّ نفخة الرّوح الإلهيّة نفسها في ذاتِ آدم. وبهذه الرّؤية تصبح ماهيَّة النّفخة الرّوحيّة الإلهيّة أقلّ غموضًا ممَّا كانت هي عليه في تفسيرات المفسّرين المُشار إليها سابقًا. وما يُحسّن هذا الوضوح بكلِّ تأكيد إرساء فهم أفضل لمعنى ﴿ **وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي** ﴾[1] (أي الجانب الرّبّانيّ عند المسيري)، وما لذلك من انعكاسات إيجابيّة على المستوى النّظريّ للبحث العلميّ في منظومة البُعد الثّالث للإنسان، وعلى المستوى التّطبيقي والمتمثِّل في دور رموز البُعد الثّالث للإنسان في تأهيل الجنس البشريّ وحده للخلافة على وجه الأرض.

1- سورة ص، الآية 72.

اللّغة وأَنْسَنَة الكائن البشريّ في القرآن

مـن جهتنـا، نـرى أنَّ الإعجـاز اللّغـويّ القرآنـيّ يشـمل نوعَيْـن لا نوعًـا واحـدًا؛ الإعجـاز الظّاهر/البيانـيّ والباطنيّ/الرّمـزيّ، ولهـذا الأخيـر ثـلاث دلالات رمزيّـة إنسـانيّة عامَّـة موجَّهـة لـكلّ النّـاس، وليسـت خاصّـة بالعـرب وحدهـم، ويسـاعد منظـور علـم الاجتمـاع المعرفـيّ على إلقـاء الضّـوء عليهـا:

1 ـ إعجـاز دائـم مـدى الدّهـر وليـس بالمؤقّـت والمحـدود، مثـل إعجـاز النّبيَّيـن عيسى وموسى. تمثّـل القامـة العاليـة للنّـصّ القرآنـيّ تحدِّيًـا للآخريـن على مـرِّ العصـور فـي جمـال بلاغـة تعبيـره وفصاحتـه بأسـلوبه الخـاصّ الـذي ليـس شـعرًا أو نثـرًا وإنَّمـا هو قـرآن، كمـا أكَّـد ذلـك طـه حسـين.

فإعجـاز النّـصّ القرآنـيّ إعجـاز يتَّصـف بالاسـتمراريّة وحتّـى الخلـود؛ لأنَّـه ضَـربٌ مِـنَ الإعجـاز الرّمـزيّ الـذي تتجـاوز قـوّة حضـوره وتحدِّيـه للغيـر العوامـل الظّرفيّـة للتّاريـخ والزّمـان والمـكان. وهـذا مـا كشـفنا عنـه الحجـاب فـي أطروحتنـا عـن طبيعـة منظومـة البُعـد الثّالـث للإنسـان/الرّموز الثّقافيّـة[1].

2 ـ يجـوز القـول إنَّ الإنسـان هـو الكائـن المعجـزة واللّغـز الكبير على هـذه الأرض، بسـبب انفـراده بالسّـيادة فـي إدارة مـا يجـري علـى هـذا الكوكـب؛ أي أنّـه لا توجـد منافسـة حقيقيّـة لـه مِـن طـرف أيٍّ مِـنَ الكائنـات والأجنـاس الحيَّـة الأخـرى فـي مسـألة إدارة شـؤون هـذه الدّنيـا. ويُمثّـل انفـراد الإنسـان فـي اسـتعمال مَلَكَـة اللّغة المصـدر الأوّل فـي خَلـق الإنسـان الكائـن اللّغـز والمعجـزة، كمـا بيَّنّـا فـي الصّفحـات السّـابقة لهـذه الدّراسـة.

فاللّغـة البشـريّة هـي بهـذا الاعتبـار أُمّ المعجـزات جميعًـا فـي جعـل الإنسـان مخلوقًـا فريـدًا يتأهَّـل وحـده لمنصـب السّـيادة والخلافـة فـي هـذا الكوكـب الفسـيح ومـا فوقـه. فاللّغـة هـي تاليًـا أسْـمَى علامـة على إنسـانيّة الإنسـان. فمجيء الخطـاب القرآنـيّ الفصيح والبليـغ بلغـة قريـش معجـزًا للعـرب يُمثِّـل فـي الوقـت نفسـه إشـادة باطنيّة/رمزيّـة لـدور اللّغـة فـي تأهيـل الإنسـان وحـده للخلافـة على هـذه الأرض. وممَّـا لا يخفى أنَّ الإعجاز الباطنيّ/الرّمـزيّ للّغـة أهـمّ مـن مجـرَّد الإعجـاز الظّاهر/البيانـيّ الـذي يحفـل بـه النّـصّ القرآنـيّ؛ إذ أنَّ اسـتعمال اللّغـة فـي النّـصّ القرآنـيّ المعجـز هـو تلويـح باطنيّ/رمـزيّ أيضًـا لأسْـمَى مـا كُـرِّم بـه الجنـس البشـريّ ومُيِّـز وشُـرِّف بـه على كلِّ الأجنـاس الحيَّـة الأخرى.

1- محمود الذّوادي، الثّقافة بين تأصيل الرّؤية الإسلاميّة واغتراب منظور العلوم الاجتماعيّة.

ومن ثَمَّ، ثمَّة مشروعيّة قصوى لاستعمال اللّغة المعجزة في الآن نفسه بيانًا ورمزًا لتشكّل أعزّ معلم لإنسانيّة الإنسان في القرآن؛ خاتم الكتب الدّينيّة السّماويّة.

3 ـ من خلال ما ورد في الفقرة السّابقة، يصبح مفهومًا ومشروعًا أن يتّخذ القرآن مِن الإعجاز الظّاهر/البيانيّ والباطنيّ/الرّمزيّ أداةَ التّحدِّي الأولى للعرب وللنّاس أجمعين على مرِّ العصور.

ففي تبنِّي الإعجاز الظّاهر/البيانيّ وسيلةً لتحدِّي العرب والآخرين تذكرة قرآنيّة بأنَّ مشهد هذا النّوع مِن الإعجاز العظيم تُمثّله في نهاية المطاف اللّغة المنطوقة والمكتوبة؛ أرقى ما يتميَّز به الإنسان وأعزّ ما أهَّلَه بحقٍّ لأخذ مسؤوليّة تسيير شؤون هذه الأرض، ورفض بقيّة المخلوقات ـ بما فيها معالم الطّبيعة العظيمة ـ تحمّل هذه المسؤوليّة، كما يُعبِّر القرآن الكريم بقوله: ﴿ **إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا** ﴾[1].

وهكذا، يمكن القول بأنَّ الإعجاز الظّاهر/البيانيّ القرآنيّ لا يقتصر على مجرَّد التّحدِّي الخاصّ للعرب في الفصاحة والبلاغة، وإنَّما يتجاوز ذلك إلى التّأكيد على الجوانب الباطنيّة/الرّمزيّة الكامنة في اللّغة، وهي جوانب لا يُشير إليها ـ لا مِن قريب ولا مِن بعيد ـ مَن كتبوا المؤلَّفات المرجعيّة حول الإعجاز الظّاهر/البيانيّ في القرآن الكريم، فلا يذكرون مَا نُسمِّيه هنا بالإعجاز الباطن/الرّمزيّ. وكما شرحنا، يتمثَّل هذا النّوع الثّاني مِنَ الإعجاز القرآنيّ في جعل اللّغة رمز إنسانيّة الإنسان وأرقى ميزاته. إنَّها الميدان الذي تحدَّت فيه آيات القرآن كلام العرب مِن شعر ونثر.

وبعبارة أخرى، الإعجاز الظّاهر/البيانيّ القرآنيّ يقع من جهة على مستوى بلاغة صياغة الكلام العربيّ وفصاحته في النّصِّ القرآنيّ، وهذا إعجاز خاصّ موجَّه للعرب. ومن جهة ثانية، يتضمَّن الإعجاز القرآنيّ إعجازًا باطنيًّا/رمزيًّا عامًّا أكثر أهمِّيّة من الإعجاز الخاصّ.

يتمثَّل هذا النّوع من الإعجاز في اختيار اللّغة وحدها دون غيرها مِنَ الوسائل في تجسيد حدث الإعجاز في المحيطين المكّيّ والمَدنيّ، وهو اختيار يشير بكلِّ وضوح بأنَّ الإعجاز الظّاهر/البيانيّ القرآنيّ يتَّخذ مِن اللّغة أعزّ ميزة رمزيّة كُرِّم بها الإنسان، فأُعطيت له وحده وبكلّ مشروعيّة السّيادة/الخلافة على وجه الأرض..

1- سورة الأحزاب: الآية 72.

فالنَّـص البيانـيّ القرآنـيّ المعجـز إذًا يُمثِّـل فـي الوقـت نفسـه إشـادة بيِّنـة وسـاميَة بمـدى الأهمِّيّـة العاليـة لرمزيّـة اللّغـة فـي تشـريف الإنسـان علـى هـذه الأرض. ومـن المؤكَّـد أنَّ التّلويـح بالـدّور الباطنيّ/الرّمـزيّ للّغـة، بكونهـا علامـة علـى إنسـانيّة الإنسـان وعلـوّ مكانتـه علـى هـذا الكوكـب، أبلـغ مـن مجـرَّد الإعجـاز الظّاهر/البيانـيّ الخـاصّ فـي النّـصِّ القرآنـيّ والموجَّـه إلـى العـرب، كمـا أوضحنـا ذلـك فـي هـذه الأطروحـة الفكريّـة لهـذه المقالـة التـي تشـهد مقولتهـا علـى الحضـور القـويّ للعلـوم الاجتماعيّـة والإنسـانيّة فـي صـوغ جديـد لفرضيّاتهـا ومفاهيمهـا وإطارهـا النّظـريّ وخلاصتهـا.

قائمة المصادر والمراجع

القرآن الكريم.

المصادر والمراجع باللغة العربيّة

- ابن خلدون، عبد الرّحمن، مقدّمة ابن خلدون (وهي مقدّمة الكتاب المُسمّى كتاب العِبر وديوان المبتدأ والخبر في أيّام العرب والعجم والبربر ومَن عاصرهم من ذوي السّلطان الأكبر)، لا ط، دار الكتب العلميّة، بيروت، 1993م.
- الذّوادي، محمود، الثّقافة بين تأصيل الرّؤية الإسلاميّة واغتراب منظور العلوم الاجتماعيّة، ط1، دار الكتاب الجديد المحدودة، بيروت، 2006م.
- الذّوادي، محمود، المقدّمة في علم الاجتماع الثقافيّ برؤية عربيّة إسلاميّة، ط1، المؤسّسة الجامعيّة للدّراسات والنّشر، بيروت، 2010م.
- الشّعراويّ، محمّد متولّي، تفسير الشّعراويّ (خواطري حول القرآن الكريم)، لا ط، مطابع أخبار اليوم، مصر، 1991م.
- طبّارة، عفيف عبد الفتّاح، روح القرآن الكريم تفسير جزء يس، ط4، دار العلم للملايين، بيروت، 1987م.
- المحلّي، جلال الدّين محمّد بن أحمد و السّيوطيّ، جلال الدّين عبد الرّحمن بن أبي بكر، تفسير الجلالين، قدّم له وراجعه مروان سوار، ط7، دار المعرفة، بيروت، 1993م.
- المسيري، عبد الوهّاب، دراسات معرفيّة في الحداثة الغربيّة، ط1، مكتبة الشّروق الدّوليّة، القاهرة، 2006م.
- وافي، عليّ عبد الواحد، مقدّمة ابن خلدون، ط7، دار نهضة مصر، القاهرة، 2014م.

المصادر والمراجع باللغة الأجنبيّة

- Borgatta, Edgar & Montgomery, Rhonda, Encyclopaedia of Sociology, 2nd edition, publisher Elly Dickason, vol. 1, 1974.
- Compiègne, Isabelle, La société numérique en question(s),

Editions Sciences Humaines, Auxerre Cedex, 2011.

- Dahrendorf, Ralf, Homo Sociologicus, Hamburg, Westdeutcher Verlag, 1974.
- Davidson, Lain & Noble, William, The Archaeology of Perception: Traces of Depiction and Language [and Comments and Reply], Current Anthropology, The University of Chicago Press, vol. 30, No. 2, 1989.
- Dhaouadi, Mahmoud, Cultural Sociology within Innovative Treatise: Islamic Insights on Human Symbols, Lanham, USA, University Press of America, 2013.
- Dhaouadi, Mahmoud, Humans as Third Dimensional Beings: within Social Science and Islamic Perspectives, New York, 2024.
- Encyclopedia of Sociology, by: Dushkin, 2nd edition, Guilford, Conn 1974.
- Marcuse, Herbert, One-Dimensional Man: Advanced Industrial Society, Beacon Press, Boston, 1964.
- Murphy, Gregory, The Big Book of Concepts, The MIT Press, Cambridg, 2004.
- Pearsall, Judy & Trumble, Bill, Oxford English Reference Dictionary, Oxford University Press, Oxford, 1995.
- Pinker, Steven, The Language Instinct: How the Mind Creates Language, Harper-Collins Publishers, Inc., New York, 1994.
- Seidman, Steven, Contested Knowledge: Social Theory Today, Fifth Edition, John Wiley & Sons, Ltd Malden, USA, 2013.
- Semashko, Leo, Daloz, Jean-Pascal & Erdemir, Aykan, Book International Sociology Review of Books, 2006. Vol. 2, No. 6, (pp. 829-38).

- Sillamy, Norbert, Dictionnaire de Psychologie, Editions Larousse, Paris, 1998.
- White, Leslie, The Concept of Culture, Edina, MN: Alpha Editions, 1973.
- Wieviorka, Michel, Les sciences sociales en mutation, Auxerre Cedex; Editions Sciences Humaines, 2007.
- Wolff, Janet, Cultural Studies and the Sociology of Culture, Contemporary Sociology, Vol. 28, No. 5, September 1999, (pp. 499 - 506).